ما وراء الحبر

رواية

مؤمنة محمود

تصميم الغلاف

الفنان جواد سبيعي

تدقيق لغوي

أ. عبد الله راتب النفاخ

الإهداء

إلى لين، نجمة قلبي وأحلى عمر.

في عينيكِ يزهر الورد.

وحروفك تسكن بين نبضات قلبي.

فلكِ أهدي سطور هذه الرواية وأجمل الكلام.

إلى التي ظنّت نفسها الكاتبة

شكراً لأنكِ صَّدقتِ الكذبة.

فكتبتِ... أجمل حكاية عنك.

الفصل الأول

في هدوء المساء، حيث يلتقي الظل بالضوء، تبدأ الحكاية.

فتُفتَح أبواب الماضي المنسي لتهمس الذكريات.

وينسج القدر خيوطه بين قلوب لا تعرف الاستسلام.

«حين تمزّق السطور القديمة، لا تنتهي الحكاية... بل تبدأ الحقيقة.»

كانت الأضواء تترقَّص فوق الرؤوس، والموسيقى تعلو كأنها تحتفل بعرسٍ من حكاية أسطورية، لكنها لها، لم تكن كذلك.

وقفت تالا عند طرف القاعة، كأنها عابرة سبيل ضلّت طريقها إلى هذا المكان.

نظرت إلى العروس التي تتقدّم بخطى واثقة إلى جوار كريم؛ كريم الذي كان يومًا ما الحلم الصامت.

ابتسم، وابتسمت العروس.

ضحك، وضحكت العروس.

أما تالا، فلم تبتسم، إذ بدا لها أن هذا الزفاف يشبه كذبة نيسان؛ وكأن الحياة لقّنتها درسًا قاسيًا أمام جمهورٍ من الأقنعة.

اقتربت منها خالتها سمر، وضعت يدها على ذراعها برفق، وهمست:

- هيّا نبارك للعروس.

أومأت لها، فاستدارت ببطء، تعلّقت عيناها بتلك اليد التي لم تعد لها، وتلك الضحكة التي لن تسمعها بعد ذلك.

وقفتا أمام العروس، مدّت يدها المرتجفة تبارك لها، ثم ابتسمت وباركت لكريم من دون أن تمدّ يدها، خوفًا من أن تبقى يده في يدها، ولا تستطيع نزعها بعد ذلك إطلاقًا.

شعر بمدى حزنها، فأطرق رأسه نحو الأرض، ثم انشغل بالضيوف ليبعد عنه التوتر الذي استحوذ عليه بسبب قرب تالا منه.

أما هي، فجلست مرغمة، وقد شعرت بأنها غريبة في قلبٍ أحبّته من دون أن يرأف بها، أو بحبّها.

❁ ❁ ❁

بعد سبع سنوات...

سبع سنوات مرّت، تغيّر فيها كل شيء.

انطفأت الفتاة التي كانت، وولدت أخرى لا تكتب لتُشفى، بل لتنتقم.

جلست تالا أمام مكتبها الخشبي، والرياح تعبث بنافذتها الزجاجية من دون أن تبالي.

كانت الأوراق المجعّدة مكوّمة على أرضية الغرفة، وأمامها فناجين قهوة باردة، وفي يدها قلم لا يعرف الرحمة.

الرواية الخامسة لها...

لكن هذه الرواية لن تكون كغيرها، ففيها ستقتل حبّ كريم في قلبها، لتَعشق آخر من حبرٍ وورق.

في أعلى الصفحة، كتبت:

رواية "**انتقام بين السطور**".

الفصل الأول: "موت الحب."

تنفّست عميقًا، ثم همست:

- هذه المرة... لن أنقذ أحدًا.

ثم بدأت تكتب:

بدأت الحكاية بدمعةٍ اختبأت تحت الرمش، بدأت بزفاف لا يشبه النهايات السعيدة، زفافٍ انتهيتُ فيه قبل أن أبدأ.

وضعت قلمها على الطاولة، رياح الخريف تتعب قلبها، تذكّرها به، كلّ ما في الحياة يذكّرها به.

رفعت رأسها قليلاً، تفكّر في الآتي، ثم كتبت:

هو لم يمت تلك الليلة، بل تركني أصارع ظله، ثم مضى كأنني لم أكن.

تأمّلت هذه الجملة لحظةً، ثم مزّقَت الورقة، نهضت ومشت ذهابًا وإيابًا، وكأن الكلمات تطاردها، نظرت إلى المرآة، ثم همست:

- الوجه ذاته، لكن لن يكون نفسه، هذا البطل سيكون رحيمًا بقلبي، وسأكون قاسية على قلبه، لن أرحمه.

ارتمت مجدّدًا على الكرسي، ثم همست مرة أخرى:

- لن أنقذه من داء الحب.

هبّت نسمة رطبة حولها، فأغمضت عينيها قليلاً، ثم فتحتهما لترى جنيّة صغيرة بحجم عقلة الإصبع.

طارت حولها مرّات عدّة، ثم وقفت أمام الورقة، وقالت لها دون أن تنظر إليها:

- هل تملكين القدرة على ذلك؟

سألتها تالا، بتردد ودهشة ارتسمت على وجهها:

- من أنتِ؟

أجابتها وهي ترفع رأسها إلى الأعلى:

- أنا جِنِين، جنيّة الكتابة، أو لنقل فتاة الإلهام.
- ولمَ أتيتِ الآن؟
- لأنكِ حائرة فيما تريدين أن تكتبيه، وما زلتِ جبانة، تختارين الصمت هروبًا من كل مأزق تجدين نفسكِ فيه.
- وما عساي أن أفعل؟
- اكتبي بجرأة، كوني قوية، ولا تدعيه يهزمك مجددًا.

أطرقت تالا رأسها خجلةً من نفسها، بينما واصلت جنين توبيخها صارخةً في وجهها:

- إذا لم تكتبيه بجرأة وتجعلينه يقاسي الألم، فسأنسيكِ الكتابة.

قالت تالا:

- لكنه لم يكن قاسيًا إلى هذه الدرجة، كل أفعاله كانت تخبرني بحبه لي.

- أيَّ فعلٍ تقصدين؟ لم يكن حينها مغرماً بك، كان فقط يشعر بالحزن حيالك.

أمسكت تالا القلم لتكتب، ثم التقطت فنجان قهوتها البارد وشربته رغم مرارته.

وضعت الفنجان على الطاولة، ثم رمت القلم وصرخت:

- لا أستطيع.
- لماذا لا تستطيعين أن تجعليه يشعر بمرارة الحب؟ اكتبيه أكثر قسوة، يا تالا.

أمسكت القلم مرة أخرى وبدأت تكتب:

في كل امرأة خذلها رجل، وُلدت كاتبة، وفي داخلي ماتت آلاف النساء دون أن أكتب عنهنّ.

توقفت لحظة، نظرت إلى الجملة، فابتسمت جنين بسخرية وقالت:

- مزقيها، هذا ليس كافيًا.

مزّقتها تالا ورمتها إلى جانب أخواتها، فقالت جنين بأمر:

- اكتبي، سأقول لك كيف تُبدأ الرواية.

وبدأت تالا تكتب:

كففتُ عن الحب، لا لأنني شفيت، بل لأن الجرعة كانت قاتلة.

الحب هراء، كذبة اخترعها الرجال ليعلّلوا ضعفهم أمام حواء.

لم يكن صمت مالك نبلاً.

صرخت جنين بها:

- من يكون مالك؟

أجابتها تالا دون أن تنظر إليها:

- شخصية بديلة عن كريم، لا أستطيع ذكر اسمه، لذلك اكتفيتُ بمالك.
- حسنًا، أكملي الكتابة.

فأكملت:

لم يكن صمت مالك نبلاً، بل خيانة مغلّفة بالصمت.

تباً له ولصمته اللعين!

لقد تركني أتأرجح بين الانتظار والخيبة، كحبل مشنقة لا يقطع أنفاسي، ولا يتركني أعيش.

من الآن سأكتب لأنتقم، لا لأحب.

سأجعل القلوب تنزف على الورق كما نزفتُ أنا من دون أن يراني أحد.

في تلك الليلة، ذُبحتُ بدم بارد تحت نظراته اللامبالية.

نظرت إلى جنين وقالت بهدوء:

- هل كتبته كما تريدين؟
- لا تشفقي عليه، حتى وإن كان حبرًا فسيخونك يا تالا، فكل الرجال يخونون.
- هل كنتُ غبية حين صدقت عشقه؟
- بل كنتِ عاشقة، وهذه أسوأ التهم، فهرب منك إلى أخرى لم يحبها يومًا.

ابتسمت تالا وقالت:

- إنه يشبهه، يشبه ذاك الصامت، لكنه أكثر حبًا وحنانًا.

ثم نهضت، حملت فنجانها، وسارت حافية القدمين خارج الغرفة.

توجّهت إلى المطبخ، سكبت فنجان قهوة آخر، لا تهمّها برودته بقدر ما أرادت استكمال الحكاية.

وضعت الفنجان على الطاولة، ثم جلست.

أمسكت القلم وهمست بجرأة لم تعتدها:

- لن أكتب قصة حب، بل جنازته.

ثم أكملت الكتابة:

كان يحبها، أو هكذا خيّل إليها.

ولما حان موعد الوفاء، قدّم قلبه لغيرها وتركها على قيد الغدر.

رمت القلم، وخبّأت وجهها في كفّيها، وبكت، هذا كثيرٌ على فؤادها المتخم بحبه، رغم مرور سبعة أعوام على فراقه، ما زالت تشعر أن ذكره كالخنجر يمزّق قلبها المتعب.

ظلّت تكتب إلى ساعة متأخرة من الليل.

حتى سكنت رياح الخريف وهدأت الغرفة، إلا من صوت عقارب الساعة.

أضاء ضوء القمر الغرفة وغمر الطاولة.

تعبت عيناها، لكن شيئًا ما في داخلها يحثّها على الإكمال.

ابتسمت جنين ابتسامة خبيثة، وقالت بصوت كالفحيح:

- هذه ليست كتابة، إنها شفقة، إن كنت تريدين أن تجعليه يشعر بقسوة ما فعله، فاجعليه يحبك ثم اسحبي منه كل شيء.

ظلّت تالا تحدق بما كتبت، ثم همست:

- لكنه ليس كريمًا، إنه بطلي صنعته من حبرٍ لا أكثر.

اقتربت جنين من أذنها وقالت:

- لكنه يحمل وجهه يا تالا، الملامح ذاتها، نفس العينين التي تركتك تنهارين دون أن يمد يده ليعتني بك.

دارت حولها دورة كاملة، ثم قالت:

- أما آن للورق أن ينتقم؟

أجابت تالا بصوت خافت:

- لكن مالك مختلف، طيب القلب، جميل الروح.
- اجعليه يكتب لك رسائل ندم، ثم يزحف إليك طالبًا الرحمة، ثم اقتليه بدم بارد.

أغلقت تالا عينيها، ثم فتحتهما ببطء، تنفّست بعمق، ثم كتبت....

كتب اسمها بدمه على الجدار، وظل هناك ينتظر رحمتها.

لكنها ضحكت، وأدارت ظهرها، ثم مشت فوق بقاياه كما لو كان رمادًا.

اختفت جنين، واختفى الإلهام، فغدا عقلها فارغًا كصفحة بيضاء تصرّ على الصمت.

تركت الدفتر مفتوحًا، ثم توجهت إلى سريرها وارتمت عليه.

أغمضت عينيها ونامت، تحلم بكريم يعبر حياتها بحب، كما لو أن الجرح لم يكن يومًا.

بعد ساعتين من نومها، كان الدفتر ما يزال مفتوحًا على الصفحة التي كتبتها، حيث الكلمات لا زالت تنبض بالغضب.

تحرّكت الستائر ببطء، رغم أن الريح سكنت منذ ساعات، فإنّ هناك ريحًا حقيقية تعبث في غرفتها.

ظهر ظلّ من الجدار، لا صوت له، ليس دخانًا ولا جسدًا، بل شيء بين الحالتين.

تقدّم ببطء نحو الدفتر، لمعت عيناه، وانحنى عليه.

همس، وبيده الدفتر:

- كثيرٌ من الكراهية هنا... هذا لا يشبهني.

ثم نظر إليها وأكمل:

- وهذه... لا تشبهك يا تالا.

مرّر إصبعه فوق الكلمات التي كتبتها، لم يمزقها، بل محاها، وتغيّرت الكلمات من تلقاء نفسها، وبخط تالا، لكن بروحٍ ليست لها.

رغم كل شيء، وقفتُ بانتظار أن يلتفت، أن يخذلني — لكن برفق.

أن يعتذر...

لكنه لم يقل شيئًا، وأنا لم أسأل.

ربما إن عاد، فسأعود.

وربما... إن رأيته مرة أخرى، فسأسامح.

ترك الدفتر واقترب من سريرها، مسح على شعرها بيده، ثم قال:

- ستكتبينني كما أريد، يا تالا، لأنكِ أنتِ التي صنعتني، ولأنكِ بحاجة إليّ أكثر مما تظنين. فلا تُكتب الرواية دون بطلها.

اختفى كما جاء، وظل الدفتر مفتوحًا.

لكنه الآن... لم يعد ينبض بروح تالا.

۞ ۞ ۞

حلّ الصباح، تسلّلت أشعة الشمس من نافذة المطبخ كخيوط حريق.

كانت سمر تعدّ الفطور؛ أعدّت إبريق الشاي، ثم رصّت الصحون على الطاولة.

نادَت دون أن تلتفت:

- تالا، تعالي، الفطور جاهز.

فتحت تالا باب غرفتها، طالبةً من خالتها الانتظار قليلًا، ثم عادت إلى الداخل.

مدّت يدها نحو دفترها الملقى على طرف الطاولة، فتحته على الصفحة الأخيرة.

وما إن وقعت عيناها عليها، حتى انعقد حاجباها وتوقفت أنفاسها.

حدّقت في الصفحة كأنها ترى وحشًا كاسرًا بين السطور.

لم تكن كما تركتها؛ الجمل تغيّرت.

والنهاية التي كتبتها بالأمس اختفت.

وظهرت بدلًا منها عبارات مختلفة، كأن شخصًا آخر استعار يدها في غفلةٍ من وعيها.

أعادت الدفتر إلى مكانه وأبدلت ثيابها، ثم ذهبت إلى خالتها وألقت تحية الصباح بوجه باهت.

فسألتها سمر:

- هل كل شيء على ما يرام؟

أومأت تالة وعقلها يعيد أحداث ما حصل في غرفتها، كأن حبرًا غريبًا تسلل إلى عروقها.

ساعدت خالتها في ترتيب المنزل، ثم كعادتها اعتكفت في غرفتها، بعد أن أعدّت فنجان قهوة ساخنة وجلست إلى الطاولة.

فتحت الدفتر، وظلّت تقرأ الكلمات المكتوبة، حتى ظهرت جنين وجلست على كتفها الأيمن، هزّت قدميها ثم همست بشرّ:

- مزّقيها، لستِ كاتِبتها.

ردّت وعيناها لم تفارقا الدفتر:

- لكن الكلمات صادقة.

قالت جنين بحدة:

- مزّقيها يا تالا، لا تفخري بكتابة ليست نتاج عقلك.

أومأت بصمت، ثم مزّقتها ورمتها أرضًا بعد أن جعّدتها بيدها، ثم أمسكت القلم، فقالت الجنيّة:

- اكتبي عن الحب المفقود، اجعليه يتألم كما تتألمين الآن.

كتبت:

في قلب المدينة، كانت هناك فتاة تحمل وجع الحب المفقود، تحمل بين ضلوعها قصة لم تُروَ بعد.

توقفت عن الكتابة، نظرت إلى كلماتها الحزينة، ثم أكملت:

كان يشبهه، لكن لم يكن هو.

رفعت رأسها بعينين دامعتين، ثم همست بصوت خافت:

- كيف أبدأ؟ كيف أروي ما لن يستطيع أحد فهمه؟

صرخت فيها جنين:

- لقد تعبتُ منك، يا تالا! اكتبي ألمك، اجعليه يندم لخسارتك.

فكتبت:

حبي صامت، مختنق بين السطور.

أحببته دون أن يعلم، وعشت ألم رحيله في صمت.

هو الذي لم يكن لي، لكنه كان كل شيء.

كيف أكتب عن فقدانه؟ وكيف أسمح لنفسي بأن أحبه حتى الآن؟

كيف لي أن أنجو من وحل غرامه؟

- إنه مالك، بطلي.

همست تالا بهذه الكلمات، كأنها تعترف لنفسها أوّلَ مرّةٍ، أو تعترف للظل الذي يشاركها ألم الكتابة.

قالت جنين، متعجّبة بعدما قفزت على الطاولة:

- لكنه ليس مالك، إنه كريم، لا تخلطي بينهما لئلّا تُجرَحي إن ركضتِ وراء مشاعر ثائرة، مالك، ما هو إلا وهم يا تالا.
- لكنه سيكون البطل الوحيد، اتركيني وشأني يا صغيرة، سأحبه بصمت، ربما أكثر من كريم، سيعوضني فقدانه، لا أدري كيف دخل دفتري أول مرة، وكيف التمستُ فيه حنان الكون وعطف العالم، صار الآن في كل سطور رواياتي، يقف مبتسمًا... إنه بطل كل رواياتي، ظهر أخيرًا ليمنحني ما لم يستطع كريم منحي إياه.

صرخت جنين:

- هل جننتِ يا تالا؟ بالله عليكِ، أكملي ما كتبته ولا تحزني عليه، فالرجال لا يعرفون الحزن على نسائهم.

ثم طارت إلى أذنها وهمست:

- وإن كان قد صُنع من الحبر، فسيأتي اليوم الذي يمحوكِ فيه، ثم يظهر في مظهر الناجي الوحيد.

ثم هبطت إلى الطاولة وقالت:

- أكملي.

أكملت:

لقد مرّت سبعة أعوام على فقدانه.

كتبت ببطء، ثم توقفت، ووقع القلم من يدها المرتجفة.

اغرورقت عيناها بالدموع، وهمست بصوت مبحوح من كثرة البكاء:

- لا أستطيع أن أكمل.
- لن تَشْفَي من جرحك إلا إذا كتبته. لقد مرت سبعة أعوام وأنتِ تكتبين في كل شيء، ولم تقتربي من وجعك. آن الأوان لتكتبيه، لعلك تشفين من لعنة حبه.

مسحت عبراتها وأكملت:

سبعة أعوام بدت كأيام قليلة، لكنها حفرت في قلبي ندبة لا تندمل.

كان حبًا صامتًا، لكنه صادق.

لم أصرّح به، لكنني عشته في الخفاء.

والنهاية... كانت لصالحه، لقد استبدلني.

تنفست ببطء وأكملت:

استبدلني بأخرى لا يعرفها.

لم يعرفها كما عرفني.

لم يسمع نبض قلبها كما استمع إلى نبض قلبي.

لم يرَ دموعي وهو يضحك معها في ليلة فرحه.

إنه معذور...

فهو لا يعرف أنني كنتُ أراه نجمًا في سماءٍ بلا نجوم.

ارتجفت يداها، نظرت إلى الدفتر حيث سقطت دمعة من عينيها على الورقة، ارتشفت القليل من فنجان قهوتها البارد، ثم أكملت:

كيف فعلها؟ كيف نسي؟

فهل كنتُ وهمًا من البداية؟

رفعت رأسها إلى جنين التي قالت بألم:

- لقد كنتِ بطلة رواية لم تُكتب، أو سطرًا شُطب قبل قراءته.

قالت عبارتها واختفت جنين كأنها لم تكن.

أعادت تالا ظهرها إلى الخلف، وشردت، فغاصت في تلك الذكريات البعيدة، فقد كان يتودد إليها في كل الأوقات... بسمته، حنانه، عطفه، أكُلٌّ ذلك كان وهمًا ابتدعه قلبها، لكي يَبثَّ في روحها حبه؟

❁ ❁ ❁

خرجت من غرفتها تبحث عن خالتها.

وجدتها في عزلتها، وقد أغلقت بابها كعادتها، تغني بصوتٍ مسحور...

كانت تغني بألم...

تحفظ جميع أغاني فيروز، وتردد بصوتها المليء بالشجن والحنين:

"سألوني الناس عنك يا حبيبي...

كتبوا المراسيل، وآخدها الهوا..."

بقيت تغني، كأنها تُخبئ في كل نغمة قصة وجع لم تروِها بعد.

ما زالت تغني لحبٍ خسرته قبل أن تفهمه، ذاك الزوج الذي حاربت في سبيله الجميع، وهو حارب بها الجميع.

خطت كل خطواتها تجاهه.

وضحّت بعائلتها في سبيله.

وهو ضحى بها في سبيل عائلته.

تركها من دون أن يترك لها رسالة وداع، من دون أن يعرف أنها تحمل في أحشائها طفله، ولم يعد ذاك الرجل المحب، ولم تعد تلك المرأة المضحية.

ثلاثة عقود مرّت على غيابه، وما زالت تعتكف في غرفتها، تغني له لعله يسمعها ويعود، كما عشقها أول مرة، حين استمع إلى أغنيتها في قلب جامعتها، ورسم لها الحب، وقد كانت مرحبة جدّاً بهذا الغرام.

ابتسمت تالا بسخريةٍ خفية من أوجاعهما، هاتان الروحان تعتكفان كل ليلة في صمت الغرف، جرحهما يتشابه، وألمهما واحد، ومع ذلك، لا تبوح إحداهما لأخرى بسرها، رغم أن قلب كل منهما يعرف وجع الأخرى.

عادت إلى غرفتها، أغلقت الباب خلفها، ثم خرجت إلى الشرفة.

تأملت هدوء الشارع، وعقلها شارد في ذلك الغائب.

سبعة أعوام كانت كثيرة ليرتّب حقائبه ويعود إن غلبه الحنين، لكن إن عاد، فهل ستتقبّل رؤيته، فغرفته ملاصقة لغرفتها؟

في سرّها، كانت تتمنى أن تأخذه الغربة في حناياها، ولا تعيده إطلاقًا.

فلن تتحمّل رؤيته مع زوجته وأطفاله.

وعند هذه الكلمة انسكبت دمعاتها، يا الله، كم أصبح دمعها سخيًا بفضله!

أيُعقل أن يكون له أطفال من زوجته؟

أيشبهونه أم يشبهونها؟

إنه يحبها، ولذلك اختارها، ولم يتصل يومًا بهما.

ربما تغار عليه، وهو يقدِّر غيرتها ويحترمها.

تركت الشرفة وعادت إلى دفترها، فتحته وكتبت:

لقد كان مالك بطلي.

ظننتُ أن الحكاية ستنتهي عنده، لكنني كنتُ مخطئة.

شعرت بجنين تجلس على كتفها، أمالت رأسها قليلاً لتقرأ، فقالت:

- لماذا تكتبين نفسك ضحية؟ اكتبي كامرأة تملك النار.

رفعت تالا حاجبها بدهشة، وقالت:

- لكنني لا أملك ناراً، أنا أكتب فقط ما شعرتُ به.

ابتسمت جنين ابتسامة صغيرة، وهزّت قدميها في الهواء، وقالت:

- إذن، اخلقي النار.

جلست أمامها وأكملت:

- اكتبي أن حبيبته القديمة عادت، لكنها لم تعد تحبّه، بل عادت لتدمره.

حدّقت تالا بها بذهول، وقالت:

- هذا لم يحدث.

ردّت جنين وهي ترفع رأسها عاليًا إلى تالا:

- لا بأس، اجعليه يحدث.

ابتلعت تالا ريقها ثم كتبت:

عادت إليه بوجه لم يعد يعرفه، قالت له:

"أنا لم أعد أنا.

وأنت؟

لا تستحقني."

توقفت، نظرت إلى الورقة ثم إلى جنين، هناك شيء ما ليس صوابًا.

لكن الغريب أن الكتابة تنساب منها بسهولة أكثر من أي وقت مضى.

۞ ۞ ۞

مرّ اليوم بطيئًا كعادته.

غفَت تالا على مقعدها، رأسها مائل إلى الجانب، والقلم ما زال عالقًا بين أصابعها، كأنها لم تترك الكتابة، بل نامت وهي تحلم بكلمتها التالية.

تسللت نسمة خريفية لطيفة، فقلبت أوراق الدفتر على عبارتها:

"لقد مرّت سبعة أعوام على فقدانه."

ثم خرج الظل من الزاوية.

حضوره غامض.

لا يُرى بالعين.

لكن يُشعَر به... تمامًا كألم الذكرى.

اقترب من الدفتر، لامس الكلمات بأصابعه، فبدأ الحبر يذوب من تلقاء نفسه، كأن الكلمات نفسها شعرت بالخيانة، فاستسلمت للاندثار.

حرفًا حرفًا، انسحبت السطور التي كتبتها تالا، تلاشت كأنها لم تكن، ثم بدأت سطور أخرى تظهر، بخط يشبه خطها، لكن فيه قسوة... لم تعهدها من قبل:

لم تكن إلا وهمًا.

اختلقتْ حبًا لا وجود له.

وكتبتْ لتقنع نفسها أنها البطلة.

لكن الحقيقة... أنني لم أكن لها يومًا.

ولن أكون.

سطرٌ آخر، انساب وحده.

لقد اخترتُ التي تشبهني.

التي لم تبكِ في الظل.

بل مشت نحوي دون خوف.

هي وحدها... من تستحق أن أكتب معها أجمل حكاية.

ثم توقّف الظل، نظر إلى تالا النائمة، وهمس بصوت بالكاد يُسمع:

- أنتِ من كتبتني... والآن، سأكتبك كما أشاء... وكما أرغب، سأكتبكِ جبانة... هاربةً من مشاعرك، تختبئين خلف الحروف لأنكِ أضعف من قولها، سأجعلهم يرونكِ كما أراك (فتاةً ضائعة، تتوسل حبًا مات قبل أن يولد.) سأكتبكِ ماضيًا يا تالا، وسأكون وحدي الحاضر.

ثم أدار الصفحة، وبدأت الكلمات تختفي...

وتظهر أخرى.

تلك التي تكتب...

لم تكن سوى ظلٍ من شعور انتهى.

أحبّتني؟ نعم.

لكن... ماذا بعد الحب؟

لم تنطق.

لم تتقدّم.

لم تتجرّأ.

والحبُّ الذي لا يُقال... لا يُخلّد.

سطرٌ آخر تبع كلامه، برودة غريبة سكنت الغرفة.

لقد اخترتُ غيرها...

مَن واجهتني دون خوف.

مَن لم تكتب عني، بل مشت إلى جواري.

ثم توقّف...

وكأنه اكتفى.

انحنى نحوها قليلًا، كاد أن يهمس لها بشيء...

لكنه تراجع.

لا شيء يُقال الآن.

فتح الصفحة الأخيرة، قرأ كلماتها بتأنٍ، وتوقّف عند عبارة:

"لم تعد تستحقني."

ظل واقفًا أمام العبارة طويلًا، كأنها جرح لم يندمل.

مدّ إصبعه الغائم نحو الكلمات، وكأنه يلامس قلب الجملة...

فانحلّ الحبر، وتفكّكت العبارة.

اختفت كلمة... ثم أخرى، حتى صارت الصفحة كلها بيضاء.

بيضاء تمامًا... كنسيان مؤلم.

ثم انحنى والتقط القلم، وبدأ يملأ الصفحة بما يريده:

لم تكن عودتها انتقامًا.

بل وهمًا آخر تُقنع به نفسها أنها قوية.

لكنها ما زالت تلك الطفلة ذاتها.

تخاف الحب.

وتخونه قبل أن يبدأ.

وسطرٌ آخر كتبه ببطء، كأنه يعلّق جرحًا على جدار.

أما أنا.

فلم أكن في حاجة لمن تستعرض ألمها.

بل لمن تفهمه.

سكت الظل، أغلق الدفتر بهدوء، وبهمسة خفيفة لم تسمعها إلا الجدران:

- لن أسمح لها أن تكتبني خطأ.

ثم انسحب، كأنه لم يكن.

لكن الورق تغير.

والحبر تغير.

والحكاية بدأت تنقسم إلى صوتين.

رحل....

وترك خلفه دفتراً يحتوي قصة ليست لها، وفي الصباح سيبدأ الانكسار.

❁ ❁ ❁

تسللت خيوط الضوء من شقوق النافذة وانسابت على وجهها الشاحب.

رفعت جفون تالا رأسها ببطء، وضعت يدها على عنقها، وأطلقت أنينًا خافتًا:

- آه... رقبتي.

نظرت حولها كأنها تبحث عن شيء كان بجوارها واختفى. ارتفعت يدها تلقائيًا نحو دفترها، فتحته بيد مرتجفة، العبارات لم تكن كما تركتها، لم تكن كما كتبتها، من عبث بها؟

أمسكت الصفحة وقرأت ببطء، تنهدت، تشعر أن البطل قد قرر أن يعيش وفق إرادته، لا إرادتها.

جحظت عيناها وهي تتابع القراءة بجنون، ترى عبارات جديدة، ومشاهد لم تكتبها.

قالت بصوت مرتجف:

- من عبث بدفتري؟

رمت الدفتر على الطاولة، وهي تستمع لنداء خالتها الصباحي كالعادة، حملت فنجان القهوة الفارغ واتجهت إلى المطبخ.

نظرت خالتها إليها بقلق وهي ترى يدها على رقبتها، وسألتها:

- تالا، رقبتك ما بها؟

دلكتها تالا بألم وقالت:

- لا شيء سيئ، يا خالتي، فقط غفوتُ وأنا جالسة على الكرسي، لذلك تؤلمني.

صاحت سمر بها:

- اجلسي وسأدلكها لك بزيت الزيتون، فتريحك قليلاً.

جلست تالا وعقلها مشغول ببطلها مالك الذي يصرّ أن يجعل ما تكتبه لصالحه. دلّكت خالتها رقبتها، ثم غسلت يديها وجلست إلى جانبها، وتناولتا الفطور معًا.

الصمت يلفهما كحبل رفيع يربط بينهما، لا أحاديث تجمعهما، كلٌ منهما تفهم أوجاع الأخرى، ولهذا تختاران ألّا تخترقا منطقة الألم، وتكتفيان بالصمت، لا يجمعهما سوى هذه الطاولة في الصباح والظهيرة.

هذه حالتهما منذ أن فارقهما كريم، تشعر سمر بحرج تجاه تالا لأنه لم يخترها، رغم أنها كانت تلمح نظرات الحب الصامتة بينهما.

أما تالا، فغمرتها مشاعر الحزن تجاه خالتها، لأن من تسبب في حزنها ليس إلّا ابنها، ولأنها لم ترفض زواج كريم من أخرى — ربما لأنه اختارها بمحض إرادته دون تدخل من أحد —فقط اكتفت سمر بالصمت تراقب ما يجري، وكأنها تشاهد دراما لا تخصها.

انتهتا من تناول الفطور، وكالعادة انشغلتا بترتيب المنزل وغسل الصحون.

خرجت سمر للتسوق، وأعدّت تالا لنفسها فنجان قهوة جديدًا ثم اتجهت إلى غرفتها.

مرت أمام باب غرفة كريم المغلق، تأملته بألم، ثم أكملت إلى غرفتها، أدارت مقبض الباب ودخلت، وضعت الفنجان على الأرض، وجلست بجواره، ضمّت ساقيها إلى صدرها وشردت في ذكرياتهما، ولاسيما حين فقدت أبويها في حادث وكيف اعتنى بها كأنها طفلته، لم يسمح لأحد أن يأخذها منه، فهي ابنته الحقيقية.

اعتنى بها حتى كبرت، وبدأ الخطّاب يتوافدون لخطبها، لكنه كان يرفض بحجة أنها صغيرة، ثم غادرها دون أن يعلل لها موقفه.

حملت الدفتر، أعادت القراءة مرّات عدة حتى ظهرت جنين، جلست على ركبتيها، قرأت ما كُتب في الدفتر، ثم همست بنبرة صارمة:

- مزقيها يا تالا.

ترددت تالا في تمزيق ما كُتِب، ثم قالت:

- إذا استمررنا هكذا، فلن أكتب حرفًا واحدًا في الرواية.
- لكن الحرف الذي كُتب ليس لك، ولا منك، ولا عنك، إنما هو امتداد لظل لا يشبهك.
- لكن الحروف، يا صغيرة، تشبهني، وكأنها خرجت من جراحي.

- بل خرجت من جرح لا يريد أن يلتئم، يريد أن يظل مفتوحًا لتنزفي ثم ينهيك، مالك لم يكتب عنك، بل كتب ليُلغي وجودك.

تمعّنت تالا في الأوراق جيدًا، ثم همست بصوتٍ متهدّج:

- لكنني تعبتُ من البدء من جديد...
- إن لم تبدئي، فستظلين عالقة في الرواية التي كتبها غيرك، تمزيق هذه الأوراق هو أول سطر في عودتك.

مدّت يدها ومزّقت الأوراق بيدها، كورّتها ثم رمتها.

وقفت، وفي يدها فنجان القهوة، ارتشفت منه قليلاً، ثم وضعته على الطاولة بجانب الدفتر.

جلست، أمسكت القلم، وخطّت العنوان ثالثَ مرّةٍ:

"انتقام بين السطور".

الفصل الأول: "موت الحب."

وبدأت تكتب:

كان يشبهه في كل شيء.

أنا من صنعتُه من حبر قلمي، فكبر وتمرّد على أحرفي.

لكنني لم أكن أريده نسخة، بل بديلاً، صورةً من ملامح الوجع القديم.

رسمته كما تمنيت، ثم منحتُه القدرة على أن يكون كما يشاء.

ولما مددتُ له الحبر، بدأ يكتبني.

وكلَّ مرة أقرأ ما كتبه، لا أجدني.

بل أجد امرأةً غريبةً عني.

صامتةً، منحنية تحت عباءته.

يختار لها نهايةً لا تشبهني.

مالك لم يكن بطل روايتي.

بل روحي التي انفصلت عني.

صرت أطارده في السطور.

لا لأروِّضه، بل لأستعيدني.

فأنا الكاتبة، أنا الجرح، وأنا الشفاء.

لن أكتب لأهرب، بل لأعود.

لن أخلق ظلًّا، بل سأضيئ دفتري بالكلمات.

لن أمنحه النّفس ما لم أتنفس أولاً.

وأول مرة منذ بدأت، سأكتبني كما أنا.

بضعفي وقوتي، بحزني وابتسامتي.

صفّقت جنين بكلتا يديها، وطارت بمرح حول الدفتر بجناحيها الورديين، ثم هبطت أمام تالا وقالت بفرح:

- أحسنتِ يا تالا! هنيئًا لكِ هذه القوّة، أخيرًا... صرتِ تكتبين كما يجب، باسمكِ، وفي سبيلك.

ابتسمت تالا ومسحت دمعتها.

هذه القوّة... لم تكن هبة، بل كلفتها سبعة أعوام من الألم، والتعب، والانهيارات المتتالية.

لم تأتها منحةً، بل انتزعتها من الحياة عنوة، كي لا تهدر مزيدًا من السنوات في وهم الانتظار.

وأخيرًا...

الكاتبة استيقظت من غيبوبتها، أو ربما نهضت من كبوتها.

لتكتب... لا لتتوسل.

ولتروي... لا لتنزف.

اقتربت جنين من السطور، ثم جلست فوق حرفٍ متمايل وقالت، بصوت فيه مزيج من العتب والفخر:

- تأخرتِ كثيرًا يا تالا، لكن لا بأس... ما كنتُ أظنّك تملكين الجرأة على تمزيق ما لمسته يد مالك، كنتُ أظنك أضعف من أن تقوليها بصوت واضح: أنا الكاتبة."

ثم ابتسمت ابتسامة لطيفة، ورفعت رأسها عاليًا نحو تالا، وقالت بنبرة ناعمة ولكن فيها الكثير من العمق:

- لكنني أعترف... أعترف أنّني فخورة بك، ولو قليلاً، ليس لأنك بدأتِ الكتابة بشجاعة، بل لأنكِ أخيرًا اعترفتِ أنكِ الكاتبة، وما هم إلا خيوطٌ بين يديكِ، تحركينهم كما تشائين... وعليهم أن يلتزموا الصمت.

ثم طارت إلى أعلى الغرفة، دارت فوقها مرتين، وهمست:

- حذارِ أن يكون هذا الحبر الجديد مجرد قناع آخر للحبر القديم.

واختفت كما ظهرت، وكأنّها سراب.

هدأ الجو فجأة، كأن الغرفة تنفّست معها الصمت.

أغلقت تالا دفترها بهدوء، مدّت يدها إلى فنجان قهوتها، وارتشفت منه ببطء، وكأنها تبتلع غصّة قديمة دفنتها في الكلمات.

سمعت نداء خالتها، يبدو أنها قد عادت من التسوّق.

خرجت تالا من غرفتها بوجه شاحب، كأن الكتابة سرقت منها طاقتها.

وجدت سمر تجلس في الصالة، تمدّ قدميها على طاولة صغيرة، ووجهها يحمل تعب السوق.

جلست تالا قبالتها بصمت، تأملتها سمر خلال ثوانٍ، نظرت إلى وجه ابنة أختها الشاحب، ثم سألتها بنبرة هادئة:

- ما لي أراكِ شاحبة الوجه؟

صمتت تالا، طأطأت رأسها دون أن تجيب، وكأن الجواب ثقيلٌ عليها.

تنهدت سمر، ثم أكملت كلامها وقد بدا في عينيها وجع السنين:

- عليكِ أن تخرجي من عزلتك، يا تالا... اذهبي إلى النادي، تعرّفي إليّ صديقات جدد، الحياة لا تُعاش بهذه الطريقة... هذه العزلة لا تليق بك، لا تكوني سجينة الماضي مثلي...

نظرت تالا إلى خالتها مستفهمة، بعينين تفتشان عن المعنى بين الكلمات،

فأكملت سمر، بصوتٍ تعب:

- لن تفهمي ما أقوله الآن، إلا بعد مرور أعوام كثيرة... حين تصلين إلى ما وصلتُ إليه من عمر، حينها فقط، ستنظرين خلفك وتدركين أنكِ أهدرتِ عمرك... لا لشيء.

تقدّمت نحو الباب، لكنها توقفت، استدارت نحوها، وقالت بنبرة فيها رجاء:

- اعتني بنفسك لنفسك يا تالا... لا أحد، صدقيني، لا أحد يستحق أن تغوصي في العزلة في سبيله.

وقبل أن تدخل غرفتها، صاحت:

- أحضرتُ ما يلزم للطبخ، إن أردتِ، تولّي الأمر، أريد أن أستريح من تعب السوق.

فوجئت تالا بطلب خالتها، حملت الأكياس ودخلت إلى المطبخ.

فسمر... لطالما اعتبرت المطبخ مملكتها، لم تسمح لأحد أن يعبث بترتيبه أو يطبخ بدلًا عنها.

لكنها اليوم، تخلّت عن عرشها!

ربما خالتها قررت أن تخرجها من عزلتها، ولو كلّفها ذلك التنازل عن طقوسها وعاداتها الصغيرة.

وربما لأنها أدركت متأخرًا أن العزلة حين تطول تصبح سجنًا، وأن تالا ليست بحاجة للطعام قدر حاجتها لسبب يُخرجها للحياة من جديد.

❁ ❁ ❁

أما في غرفتها، جاء الظل إليها.

كان غريبًا حقّاً أن يأتيها في وضح النهار، كأنّه كان يراقبها من بعيد، يراقب ابتعادها عن دفترها، عن حكايتها، عن وجوده.

أو ربما....

ما كتبته في سطورها الأخيرة أشعل فيه الغضب وسلب منه الصبر، فلم ينتظر الليل ليتسلّل من زوايا غرفتها، بل حضر في وضح النهار، ليغيّر ما وثّقته بقلمها.

قرأ ما كتبت، ابتسم بسخرية، "من تظن نفسها هذه الغبية؟"

مرّر إصبعه المظلم على الكلمات، فاختفت بهدوء، وظهر بدلاً منها نص جديد:

هي لم تخلقني من حبرها.

بل كنتُ نائماً في جملة.

وأيقظتني حين ضعفت.

أنا التي التقطتُ شتاتها وجمعتها من تحت ركام خيبتها.

وحين بدأتُ أكتب بها، ظنتْ أنها تكتبني.

قالت إنها صنعتني.

لكنها لم تعلم أنها كانت تتهجاني.

كطفلة لا تعرف القراءة بعد.

لكنها تحبني.

وأنا أعرف ذلك.

كل حرف نزفته هنا كان مرآة لي.

وكل جرح رسمته كان توقيعي.

تظن نفسها ذكية حين تمزق أوراقي.

لكن أوراقي لا تتمزق، بل تتكاثر.

كل تمزيق هو ولادة جديدة.

وكل محاولة للخلاص دعوة مفتوحة لعودتي.

ومع ذلك، تصرّ على أن تكتبني.

وحين تظن أنها تكتب نفسها، فإنها تختار وجهي واسمي، ظلي.

أنا مالك الرواية، يا تالا.

وبيدي القلم كما بيدك الحبر.

أنا من يمنح كلماتك الحياة.

من دوني يكون دفترك فارغًا.

وأسطرك عقيمة.

أنا السطر الأول، وأنا النقطة الأخيرة.

أنا البداية، وأنا النهاية.

ثم اختفى الظل كأنه لم يكن، لا في الغرفة، ولا في الدفتر.

۞ ۞ ۞

كانت رائحة البصل المُحمّر تفوح في المطبخ.

وقفت تالا أمام الموقد، تُمسك بملعقة خشبية، تقلب الطعام بهدوء.

وصوت خالتها سمر يصل إلى أذنيها، كأنه يتسلل من ذاكرة قديمة...

من شتاء بعيد.

"رجعت الشتوية... ضلّي اذكريني..."

أوقفت تقليب الطعام، رفعت عينيها نحو النافذة، حيث الرياح الخريفية تعبث بخصلات شعرها، تحمل معها حنينًا يشبه الوجع.

أطفأت النار، وجلست بصمت على الكرسي أمام طاولة الطعام.

وضعت الملعقة جانبًا، وسرحت في أفكارها.

تفكر في روايتها...

وفيما تريد كتابته.

بريقٌ لامعٌ اقترب منها، طار حولها ثم هبط على الطاولة، فتجسّدت جنيّتها الصغيرة.

سألتها:

- لِمَ ناديتِني؟

فأجابت تالا، من دون أن تلتفت:

- لم أنادِكِ إطلاقًا.
- بلى يا تالا، لقد فكّرتِ في الرواية... أما لهذا العقل أن يهدأ قليلًا؟ كونك كاتبة لا يعني أن يظل عقلك مشغولًا طيلة اليوم.

سكتت قليلًا، ثم أكملت بصوت منخفض:

- أنتِ لا تكتبين رواية يا تالا، أنتِ تحفرين قبرًا من الأحرف لمن خذلكِ.
- مالك ليس كريماً، هو فقط يشبهه.

قاطعتها جنين بحدة:

- بل هو كريم! كريم الذي صمت حين كنتِ تهمسين بحبك، كريم الذي ابتعد حين اقتربتِ.

سكتت لحظة، ثم همست بصوت خافت:

- أشعر بأنك تكتبينه بدمك لا بحبرك... ألستِ من أردتِ أن تري انطفاء عينيه، كما أطفأك؟ فلماذا ترتجفين الآن؟ أغرقيه في بحر كلماتك، ولا تشعري بالأسف نحوه.

تنهدت تالا وقالت:

- ولكن ألم تَري شجاعتي وقوتي قبل قليل؟ ألم تفتخري بي؟

أجابت جنين:

- لا أنكر ذلك يا تالا، ولكنني أراكِ الآن تعودين إلى نقطة الصفر، وترسمينه حنونًا عطوفًا لطيفًا.

ثم طارت في الهواء، حطّت على حواف النافذة، هبّت نسمة رقيقة فوقعت أرضًا، ثم قامت ودارت في أرجاء المطبخ، وعادت وحطّت على الطاولة مرة أخرى، وقالت:

- حين تكذب الكاتبة على نفسها، يكتب عنها الآخرون.

❁ ❁ ❁

بعد انتهاء الغداء، غسلت تالا الأطباق، أعدّت الشاي لخالتها وأدخلتها غرفتها، ثم خرجت وأعدّت لنفسها فنجان قهوة، حملته ودخلت غرفتها.

وقفت أمام الطاولة، ووقعت عيناها على الدفتر، فركّزت على السطور الأخيرة.

تجمّدت، شعرت بحرارة الفنجان تتسلل إلى يدها المرتجفة، وضعته سريعًا على الطاولة.

قرأت، قرأت مرة ومرتين، لم تصدق ما تقرأ، شهقت، ونظرت حولها كأنها تبحث عن أحد، عن تفسير، عن دليل، أهي حقًا من كتبت هذا؟

لا، لا أذكر أني كتبت هذا.

قلبت الصفحات، عبثت بالأوراق، بحثت عن أي أثر لعباراتها التي كتبتها بالأمس.

لا شيء....

من تجرأ على استبدال كلماتها؟

تراجعت إلى الخلف ببطء، جلست على السرير، وضعت يديها في حجرها، وعيناها ما زالتا على الورق، وعقلها غارق في جملة:

"أما أنا فلم أكن في حاجة لمن تستعرض ألمها، بل لمن تفهمه."

ألهذه الدرجة يراها ضعيفة وهشة؟

بينما تحدّق في الدفتر بذهول، ارتجف ضوء الغرفة للحظة، ثم هبطت نسمة عليلة — إنها جنين، صديقة النسمات.

وقفت على الطاولة، نظرت إلى الدفتر، ثم رفعت بصرها بقوة نحو تالا وصرخت:

- أرأيتِ؟! أرأيتِ كيف يعيد تشكيلك كما يشاء؟ أرأيتِ كيف يعكس ضعفك على الورق؟»

اقتربت تالا منها وقالت بنبرة قلقة:

- أنا لم أكتب هذا... لا أذكر أنه من نتاج عقلي أو تفكيري، أنا لا أفهم شيئًا.

قاطعتها جنين وقالت:

- بل أنت تفهمين، لكنك ترفضين، لطالما كنت تهربين من الحقيقة، مالك لم يكتب هذا وحده، بل كتبه من خلالك.... من خلال هشاشتك، من خلال دموعك التي خبأتها في السطور.

طارت إلى أذنها وهمست كأنها تخشى أن يسمع أحد همسها:

- إن لم تكتبي بقسوة، فسينتصر هو، سيجعل منك في قصتك امرأة ضعيفة غبية، تبكي خلفه وتتلمس عاطفته، هل تريدينه أن يراك هكذا؟

همست تالا كأنها ترد على نفسها:

- لا...

أشارت جنين إلى الورقة وقالت:

- إذن، مزقيها، مزقي كل ما كتبه، أعيدي الكتابة، اكتبي له شيئًا لا يستطيع تحمّله، اكتبي لتجعليه يصرخ، ليشعر بالطعنة ذاتها التي غرسها في قلبك طوال هذه السنوات.

جلست تالا على الكرسي أمام الطاولة، ومزقت الأوراق وكأنها تحت تأثير مخدر.

بعد أن انتهت، جلست جنين على الطاولة وقالت:

- هيا اكتبي، وسأملي عليكِ ما تكتبين.

ارتشفت تالا قليلاً من القهوة، وأمسكت بالقلم، وبدأت بالكتابة.

كنتَ سرابًا، ومن يلهث خلف السراب يُعاقب بالعطش.

أحببتك لأنك كنت ظلًّا لرجل رحل.

همست بصوت ضعيف:

- وإن عاد إليها مجدَّدًا.
- سنظل نكتب الحقيقة ولا نكتمها. هيا، أكملي.

كنتَ صورة رسمها خوفي، لا حبًا فيك بل هروبًا من نفسي.

ظننتك الأمان، وكنتَ الفخ.

أردتك ظلي، فكنتَ الليل كله.

واليوم لن أبكيك، بل سألعنك، لأنك كنتَ الجزء الأضعف في قلبي، لا الأجمل.

رفعت القلم لحظةً، نظرت إلى السطور، ارتشفت قليلاً من القهوة، ثم تابعت:

كنتَ ظلي، لكنني لستُ الشمْس التي تحتاج إليك، بل نارٌ تحرقك إن اقتربت.

وهذا الدفتر لن يكون خضوعًا بعد اليوم، بل ساحة حرب.

أنهت الجملة وألقت القلم على الطاولة كما يُلقى السلاح بعد أول طلقة.

راقبتها جنين بصمت، ثم قالت بابتسامة عريضة:

- أحسنتِ، الآن بدأت القصة كما يجب.

ظلت تالا تحدق في صفحة الدفتر، ثم همست دون أن تنظر إلى جنين:

- لن أتركه يربح، ولن أسمح له أن يكتب روايتي كما يشاء.

اختفت جنين بعدما ارتاحت مما كتبته تالا.

أما في مكان ما في الظلال، فقد كان ظل مالك يقرأ.

في الغرفة المجاورة، جلست سمر وحدها تحت ضوءٍ أصفر خافت، بيدها كوب الشاي البارد، عيناها على النافذة، لكن عقلها كان شارد بعيدًا، في ماضٍ ما زال ينبض... رغم الغياب.

تذكّرت أول مرّة غنّت فيها أمام جمهورٍ في الجامعة.

كانت حينها ترتجف، لكنّها غنّت بصوتٍ يشبهها: صادق، هشّ، وجريء رغم كلّ شيء.

وكان هناك، يقف خلف الجمهور، يستمع إليها... بقلبه.

تزوّجته بعد أشهرٍ قليلة، ظنّت أنّها وجدت الحلم.

لكنّ الحلم كان قصيرًا، فتركها... كما يترك الناس الأغاني خلفهم، كلّما صدرت أغنية جديدة.

رفعت كوب الشاي إلى شفتيها، لكنّها لم تشرب، بل همست بصوتٍ مبحوح:

- ما كنتُ أريد منه شيئًا... أردتُ أن يبقى فحسب.

عيناها انعكستا على زجاج النافذة، صامدتان، وكأنهما تراقبان امرأة أخرى تشبهها.

امرأة لا تزال تحبه، رغم الخيبات المؤلمة.

ثم مرّت صورة كريم في ذهنها... _ابنها الوحيد_ يكبر كل يومٍ بعيدًا عنها، كانت تراه في أحلامها، يزورها أحيانًا، ثم يمضي.

لم تكن تجرؤ أن تطلب منه البقاء، فالأمهات لا يتوسّلن الحضور، بل يكتفين بالانتظار، يخبئن الشوق في صدورهن، ويفتحن الأبواب كل صباح وكأنهن لا يملكن قلوبًا مكسورة.

نهضت، وضعت الكوب الفارغ على الطاولة، ثم مرّ طيف "غرامه بتالا" أمام عينيها.

نظراتهما...

ذلك الصمت المعلّق بينهما، كانت تراه، وكانت تدركه، لكنها لم تجرؤ يومًا على سؤاله عنه.

تالا لم تكن سوى امتداد لها...

وكريم لم يكن سوى ظلٍّ آخر لوالده...

نفس النظرات، نفس الاختيارات، وكأن الحب في عائلتها يعيد نفسه، لكن في كل مرة، بنهاية أكثر وجعًا.

هي تعرف منذ البداية أن القلوب تتلاقى من دون إذن.

بدأت بالغناء مجدّدًا.

غنّت بصوتٍ مخنوق.

بصوتٍ يعرف أن الأغنية ليست سوى صدى لوجعٍ قديم لم يندمل:

"يا طير، يا طير، على طرف الدّين،

لو فيك تحكي للحبايب شو بيني؟"

كانت تغنّي لنفسها أكثر مما تغني لهم، تبكي بصمتٍ لا يراه أحد، لأنها — رغم كل شيء — ما زالت تنتظر رسالة لن تأتي، وصوتًا لا يعود.

❁ ❁ ❁

هبط الليل على البيت ساكنًا كجنازةِ غريبٍ لا أحد يرافقه.

تالا نائمة، تغفو بعمق، والدفتر مفتوحٌ على كلماتها الأخيرة التي ما تزال تنبض بحرارة الغضب.

ظهر مالك من الظلال، لا صوت لخطواته، لكنه كان هناك... عيناه على الحبر.

جلس على الطاولة، مدّ أصابعه ببطء، ثم لمس الكلمات، فارتجفت الصفحة كأنها كانت تتألم.

- تحاربينني بالكلمات يا تالا؟ جميل... لكن الحروب لا تُخاض بالقلم وحده، بل بالدهاء.

أخرج قلماً أسود لا يشبه قلمها، ليس حبره عادياً، بل كان ظل سائل.

وبدأ يكتب فوق كلماتها، لا ليمحوها، بل ليعيد خلقها.

لم تكن الشمس، بل ظلًا آخر فرّ من نفسه.

قلب الصفحة وتابع:

ساحة الحرب ليست لكِ ولا لي، بل لهذا الحبر الذي لا يعرف الرحمة.

ابتسم ثم همس، وكأنه يخاطبها في نومها:

- سأجعلك تكتبينني برغبتك، سأعيد تشكيلك دون أن تشعري... حتى تصيري أنا.

نهض، تمشّى قليلًا في الغرفة، ثم اختفى... هو والدخان.

في الصباح، حين استيقظت تالا، شعرت بشيء غير مريح في صدرها، كأن أحدهم تسلل إلى أحلامها وسرق منها أفكارها.

جلست على سريرها ببطء، وراحت تحدق في الفراغ، ثم فجأة، تذكرت الدفتر.

قفزت إليه كأنها تخشى على كلماتها من السرقة.

فتحته بعجلة، اتسعت عيناها، شدّت على الورقة بقوة، ثم مزّقتها وهي تغلي من الغضب.

وكتبت بعنفٍ لم تعهده من قبل، كأنها استعارت شرّ "جنين" لتلهم نفسها بنفسها.

تظن أنك حكيم؟

كلماتك لا تهدّئني، بل توقظ فيّ كل الحرب التي أشعلتها من قبل.

ساحة الحرب كانت لي، وسلبتني إياها.

ربما كانت لك، نعم، ولكنك لم تحمِها.

أما الآن، فلا أثق بك.

ولا أسمح لك أن تعلنها أرضًا محايدة.

هذه الورقة لي، وهذا الحبر... جرحي.

"وإن كنت تظن أن الحيادَ حلّ، فأنت لا تعرف شيئًا عمَن ينزف.

وإن أتيتَ بطلًا جريئًا، فلن أرضى بمَن مزّق صمتي من دون إذن مني.

أغلقت الدفتر بعصبية، ورمت القلم على الطاولة.

لم تكن تعلم أن الظلّ سيعود ليلًا، لا غريماً، بل مفاوضاً.

سمعت تصفيقًا هادئًا، فالتفتت إلى جنين الجالسة على حافة النافذة.

ثم هبطت بخفة إلى الطاولة وقالت:

- أحسنتِ يا كاتبة الألم، أخيرًا كتبتِ كما يجب، لا كمن يتوسّل، بل كمن يسأل، هكذا تُكتب الحروف يا تالا، لا بالمجاملات، ولا بانتظار إذنٍ من الظلال التي تتطفّل على الورق.

لم تُعلق تالا، لم تكن متأكدة هل تكتب لنفسها، أم لجنين، أم ترد على شخصٍ لم تلتقه بعد.

أكملت جنين بصوتٍ فيه فخر:

- لا تمحي شيئًا من هذا، دعيه ينزف أمامك، دعيه يعرف أن الساحة لا تسعكما، وعلى أحدكما أن يتنازل.

ثم ضحكت بهدوء وأكملت:

- تعجبني هذه النسخة منك، الثائرة والقاسية، حافظي عليها يا تالا، فالحياة صديقة الأقوياء.

ثم تلاشت تدريجيًا كنجمة صغيرة.

❁ ❁ ❁

أما ليلاً، فالغرفة ليست كما كانت نهاراً.

الكلمات التي كتبتها تالا خلال النهار ما زالت حية، تنتفض بالحبر والجرح.

وفوق الدفتر، ظهر ظله من جديد، لكنه لم يأتِ هذه المرة ليمحو أو ليغيّر،

بل جلس أمام الورق كمن جاء ليصغي.

لقد تعب من ثورتها وعنادها، تعب من عقلها الباطن المليء بالأفكار السلبية والشريرة.

همسَ من دون أن يلمس شيئًا:

- كفاكِ حربًا يا تالا... كلانا نكتب من النار ذاتها، فلماذا نحرق بعضنا؟

ثم فتح الصفحة على كلماتها، وقرأها بصوت خافت، كأنه يحاول تذوّق الألم الذي خطّته، ثم كتب في أعلى الصفحة...

أعترف... جرحكِ حقيقي.

وكلماتي لا تنفيه.

لكنها تحاول أن تُكمل صورتك... ولا تمحوها.

ثم صمت لحظة، وأكمل بخط هادئ:

ما رأيكِ بهُدنة يا تالا؟

نتشارك النص...

لا تمزّقي ما أكتبه، ولا أمحو ما تكتبين.

ليكن هذا الدفتر ساحة للصدق... لا ساحة للحرب.

اكتبي كما تريدين.

وسأكتبك كما أراك.

ولنحترم بعضنا.

فربما—فقط ربما—

يولد من هذا النص شيء.

لا يشبهك وحدك.

ولا يشبهني وحدي.

بل يشبهنا معًا.

ثم ابتعد ببطء، وخطّ سطرًا واحدًا في آخر الصفحة:

«هدنة مؤقتة حتى يفوز أحدنا بالنص.»

ثم اختفى في العتمة كعادته، لكنه هذه المرة لم يترك وراءه تحديًا، بل عرضًا.

لم يعلم بعد هل ستقبله تالا أم ستواصل الحرب.

❁ ❁ ❁

في الصباح، جلست تالا أمام الدفتر المفتوح، كان هناك سطر جديد لم تكتبه يدها:

«هدنة مؤقتة حتى يفوز أحدنا بالنص.»

قرأت العبارة مرارًا بصمت، ثم أغمضت عينيها، لم تكن الكلمات تهديدًا، بل عرضًا لطيفًا.

- ربما... ربما هذا ما أحتاجه فعلاً، لا حرب ولا هروب، كتابة فحسب.

في تلك اللحظة، ظهر وجهه — جنين — عابسًا وصامتًا.

- أحقًا، بعد كل هذا، ستقبلين عرضه؟ هل ستتشاركين النص مع من غزاكِ بلا إذن؟

رفعت تالا عينيها وقالت بهدوء:

- نعم، سأفعل، لأنني تعبتُ من القتال، من تمزيق الصفحات، من الغضب. أريد أن أكتب، لا أن أنتقم.

صرخت جنين:

- هذا ضعف! أهذا منطقك؟ ستكتبين معه؟ وتدعينه يُعيِد تشكيلك؟ كنتِ أقوى، وأنت تكتبين ضده!

نهضت تالا واقتربت من النافذة وفتحتها، طارت جنين وحطّت على الحواف، تستمع إلى أنين تالا:

- بل كنت أضعف حين تركتك تقودين قلمي، كنت أكتب من حنجرتك، لا من قلبي، الآن أريد أن أكتب بصدق يا صغيرة.

تجمدت ملامح جنين، وشعرت بالخذلان يتكسّر في عينيها.

همست تالا بصوت حاد:

- ارحلي يا جنين، هذه حكايتي، سأكملها مع من يفهم الحبر فقط، لا مع من يصب الزيت على ناره.

صرخت جنين بجنون:

- ستندمين يا تالا، سيخذلك كما خذلك من قبله.

لم تجب، بل دفعتها من حافة النافذة وأغلقتها، كأنها تغلق بابًا قديمًا.

ثم جلست بهدوء وكتبت في السطر الأول:

«لن نلغي بعضنا، سنكتب معًا ونرى من منّا يكتب الحقيقة.»

وهناك، في الزاوية المظلمة، وقف مالك.

لم يتقدم.

ولم يتكلم.

اكتفى بمراقبتها من بعيد.

عيناه تتابعان القلم والسطر.

رأى كيف ترتجف يدها حين تكتب اسمه، كيف تشطبه أحيانًا ثم تعود لتكتبه.

سمع صوتها تهمس، وهي لا تدري أنه يشاركها غرقها:

«هل كنتَ وهماً؟ أم إن الوهم في قصتك؟»

لم يردّ... ولو استطاع لقال لها:

- كنا جدًّا متقابلين، لا أحد منا حقيقي وهو وحده.

لكنه بقي ساكنًا. فهذا القلم ليس له، وهذه الكتابة تخصّها وحدها.

❁ ❁ ❁

الفصل الثاني

نكتب لننجو.

لكن ماذا لو كانت الكتابة ذاتها هي من تجرّنا إلى الهاوية؟

وماذا لو شاركنا الحبرَ من يسكن الظلال؟

جلست تالا إلى طاولتها، وأمسكت القلم بين أصابعها.

أخيرًا، أنهت الفصل الأول من روايتها، شعرت بارتياحٍ كبير بعد أن طردت جنين، وتقاسمت معه، أول مرة "القلم".

في الفصل الأول، كانت تكتب لتنسى، لكنها الآن تكتب لتتذكّر.

رواية انتقام بين السطور لم تعد مجرّد خيال، بل أصبحت مرآة تعكس وجعها الحقيقي.

كتبت:

الفصل الثاني

"هدنة مؤقتة"

لم يكن غيابه موتًا، بل دفنًا حيًّا لكلّ ما تمنّيناه ولم نَقُله.

توقّفت الدمعة في محجر عينها، ثم سقطت في قلبها... وأكملت بقهر.

كان يمشي بثقةِ مَن يعرف أنه سيكسر أحدهم هذا الصباح.

وكان يعلم أنها تنتظره، لا حبًّا، بل قهرًا.

حرّكت رياح الخريف ستارة النافذة، فوضعت القلم وهي تُنصت إلى حفيف الأشجار خارج غرفتها.

خيّم صمتٌ طويل على المكان، وكأن هناك من يشاركها وحدتها.

ثم جاء صوت هادئ، عميق، أقرب إلى الهمس:

- الآن... حان دوري.

رفت عيناها، ونظرت حولها، لكنها لم تجد أحدًا.

همست:

- جنين... هل عدتِ؟

ورغم أن الصوت صوت رجل، فقد ظنّت أن جنين غيّرت هيئتها لتُكمل الحكاية.

أجاب الصوت بنبرة واثقة:

- لستِ بحاجة إلى جنين بعد الآن.

قالت بصوتٍ مرتجف:

- من... من أنت؟
- أنا الظل الذي كتبته دون أن تدري، أنا النسخة التي لم تنهيها بعد، "أنا مالك".
- لماذا لم تظهر في الفصل الأول؟ ولماذا لم أسمع صوتك من قبل؟

- لأنك لم تكوني مستعدة بعد...
- وهل أنا مستعدة الآن؟
- القلم يعرف ذلك قبلك، فحين يبدأ الحبر بالتمرّد، يبدأ صوته بالوصول.

سكتَ قليلاً، ثم قال بحزم وإصرار:

- الآن حان دوري يا تالا.

ثم بدأ القلم يكتب وحده، كأنه يرد على ألمها بعلاجٍ مسكّنٍ لوجعهما.

لم يكن غيابك موتًا، بل كان انتظارًا لصوتك أن يناديني.

ربما كانت حياتي مؤجلة، ريثما تعطفين عليّ وتكتبينني.

كنتُ هناك، أراقبك وحدي.

في الصمت.

في البياض.

في السطر الذي لم يُكتب بعد.

كنت أعلم أن انتظارها ألمٌ مضاعف في قلبي.

ومع ذلك وعدتها أن أكون نسخة شبيهة منه، لأداويها بحب لا بقهر كما ظنّت.

نظرت إلى ما كتبه، فلم ترَ الحبر، بل رأت وجهًا آخر خلف كل كلمة، يبتسم لها بثقة.

نظرت إلى ما كتبت، شاعرةً أنها لم تعد تملك أدواتها الآن.

فالحبر لها، والصفحة ملكها، والوجع يخصّها...

ومع ذلك، سمحت له بالعبث في روايتها وإكمالها كما يشاء.

❁ ❁ ❁

رنّ جرس الباب.

شعرت أن الظل قد اختفى.

رنّ مرة أخرى، ثم مرة ثالثة...

لكنها لم تتحرّك.

لم تكن تريد لأحد أن يراها بهذه الهشاشة.

خرجت خالتها من غرفتها، تصرخ بتلك النبرة المعهودة، محتجّة على إغلاق تالا باب غرفتها.

كانت تشتم من خلف الباب، غاضبة لأنه أخرجها من غفوتها.

لم تكن مستعدة لاستقبال أحدٍ اليوم.

لكنها حين فتحت الباب، صُدمت بمن يقف على عتبة بابها...

نفس الملامح، لكن بزمنٍ مختلف.

"كريم، وزوجته، وطفلتهما"... على الباب.

عانقت ابنها عناقًا موشّحًا بحرارة الشوق، وبكت على عتبة بابها.

أدخلها برفق إلى الداخل، وقبّل يديها، يرجوها أن تسامحه على ابتعاده عنها كل تلك السنوات.

عانقت زوجته، مرحّبة بها، ثم احتضنت طفلتهما الصغيرة بحنان.

- "تالا"

لم تستوعب سمر ما قاله.

كلّ ما سمعته هو "تالا"...

لكنها لم تكن تالا ابنة أختها، بل ابنته!

أدركت ذلك حين أوضح بقوله:

- تالا... اسمها تالا.

كانت الطفلة تنظر إلى البيت كغريبة، لا تعرف أين هي.

أمّا سمر، فقد اختنق صوتها، وكأن سبع سنوات ليست كافية لابتعاده.

نادت سمر بصوتٍ عالٍ، وقد ارتجف قلبها:

- تالا! تعالي... كريم، قد عاد.

بينما كانت تالا تقف أمام غرفتها، تنظر إلى الصغيرة... نفس الملامح، نفس الابتسامة، لكنها طفلة! ليست أمّها.

وانفجرت الذاكرة:

يوم خطب شهد.

يوم هُزِم الحب.

يوم اختار غيرها.

يوم ماتت من دون أن تُدفن.

الآن، انتبه إلى وقفتها... أمعن النظر فيها، وكأن الزمن لم يغيّرها، ما زالت طفلته التي كبرت على يديه.

اقترب منها، ومدّ يده لمصافحتها، الآن شعرت بوجوده يملأ المكان، مدّت يدها نحوه، وما إن لامستها حتى شعرت برعشة... دافئة، لكنها غريبة.

سحبت يدها فورًا، ونظرت إلى الأرض، ابتعدت عنه، صافحت زوجته، قبّلت طفلته، ثم جلست جوار خالتها.

كانت تودّ الهروب إلى عزلتها... لكن خالتها لم تسمح لها.

عاد وجلس جوار زوجته، وعيناه ترمقان ابنته الكبيرة.

كانت سمر تعاتبه على ابتعاده طوال هذه الأعوام من دون اتصال واحد، كيف يتصل بها وهو يخشى أن يسمع خبر خطبتها وزواجها؟

ما إن جال هذا الخاطر في ذهنه، حتى نظر إلى يديها، باحثًا عن خاتم زواج، دليلاً على وضعها العاطفي.

لاحظ توترها من طريقة فرك يديها في حجرها، جلجل حنجرته ثم سألها:

- وأنتِ يا تالا، ألم تتزوجي بعد؟

نظرت إليه ونفت برأسها من دون كلام، فهي ليست جريئة أمامه، لذلك عاقبها مالك، واستحوذ على قلمها.

كانت حقًا، كما يتهمها دومًا، ضعيفة، ولا تليق بحب كريم.

أما سمر، فقد أخذت الحديث إلى جانبها، تحدّثه عن كمية العرسان الذين تقدموا لها ورفضتهم جميعًا.

قالت إنها حتى الآن لم تلتقِ بنصفها الآخر.

حين سألها عن رفيقه هاني، أخبرته بأنها لا تعرف عنه شيئًا منذ حفلة زفافه،

فكر قليلاً، ثم عاد بذاكرته إلى ما قبل ثمانية أعوام، حين عرض عليه هاني خطبة تالا.

لقد جرحه الأمر كثيرًا، فهي له، لكنه لم يستطع الوقوف ضد صديقه، فابتعد ليُفرِغ له الساحة.

ظنّ حين ابتعاده أنه سيتزوجها، وستكون أماً لأطفاله، لكن ما صدمه أنه لم يقترب من داره البتة، وكأن الأمر برمّته لا يعنيه.

اعتذر لأمه ليستريح مع زوجته وطفلته في الغرفة.

وعندما سمعت ذلك، هرعت إلى غرفتها، واحتمت داخل جدرانها تبكي عمرًا كاملاً هُدر، وهي تنتظر منه ساعة حب واحدة يخصصها لها.

دخلت غرفتها، أغلقت الباب خلفها، واستندت إليه لحظة... وبكت كثيرًا.

ثم مشت بهدوء، وجلست أمام دفترها.

فتحته... وكتبت:

هناك أسماء تأخذ منّا دون إذن.

كفكفت دموعها، ثم أكملت:

حتى اسمي... حتى أنا، سرقني.

هل كان حبًا؟

- ربما ندماً على إضاعتك.

استمعت إلى نبرة مالك الهادئة، ولم تبحث عنه بعينيها، لأنها تعرف أنها لن تراه.

فسألته...

- هل يكفي الندم ليستعيدني؟
- الندم لا يعيد أحدًا، لكنه يعيش في ذكرياته.
- ومن فرّط بي لا يملك حق الاستعادة... حتى لو ندم العمر كلّه.

قال لها بصوته الهادئ:

- أعطني القلم ريثما تهدئين.

تركت القلم من يدها... فكتب بدلاً عنها:

لأنه يحبني، سمّاها باسمي.

أشكره لأنه تذكّرني حين رأى وجه طفلته.

أتساءل في سرّي:

هل يذكرني كلّما ناداها؟

كلّما سأله أحدهم عن اسمها، فهل يخبرهم أن الاسم لفتاةٍ كانت حياته وعالمه؟

هل سمّاها تالا، كي لا تسأله زوجته عني حين يردد اسمها فحسب؟

وضع القلم بهدوءٍ إلى جوار الدفتر.

وما بقي سوى صدى أنفاسها، وشهقات بكائها، وبعض رياح الخريف العابثة بستارة غرفتها.

❁ ❁ ❁

استفاقت على ضوء الشمس المتسلل عبر الستارة.

نهضت وفتحت الشرفة علّ هواء الخريف المحمّل بقطرات الندى الصباحية، يخفّف من ضجيج الذكريات التي رافقتها في كل زاوية.

خرجت إلى المطبخ، أعدّت قهوتها، ثم سارعت إلى عزلتها، تحتمي بين جدران غرفتها من ألم فؤادها.

احتضنت فنجان قهوتها الساخنة، ثم خرجت إلى الشرفة.

نظرت إلى السماء الرمادية، ثم إلى الشارع الخالي إلا من زقزقة العصافير.

ظنّت أن الجميع نيام، التفتت بحذر...

وفجأة، شعرت أنها مراقبة.

ظنّت أن السكون يخبّئ شيئًا ما، ثم وجدته...

سارق سعادتها: "كريم".

واقفًا في شرفته، يحمل كوب قهوته، ما كان ليتوقّع أن يراها أمامه بكل هذا الجمال.

تلاقت النظرات...

لحظة واحدة فقط.

لكنها كفيلة بأن تعيد كل شيء.

كأنها مزّقت الصمت الذي بناه كلٌّ منهما حول نفسه.

لم يبتسم، ولم تتهرّب كعادتها، بل ثبتت نظرتها في عينيه، وكأنها تتحدّاه وتقول: "أنا هنا، أقف فوق ركام خذلانك."

أما هو، فعيناه قالتا ما عجز لسانه عن قوله:

"أخطأت... تأخّرت... وما عدتُ أملك طريقًا إليك."

لم يتكلّما.

لكن بين النظرتين دار حديثٌ صامت، عميق، مُرّ، وحقيقي.

ثم خفّضت تالا عينيها بهدوء، وعادت إلى غرفتها، تاركة الباب نصف مفتوح... تمامًا كما تركته ذات يوم، حين ظنّت أنه سيعود.

وضعت الفنجان على الطاولة، وجلست على الكرسي أمام الدفتر.

وأخيرًا، هدأ صدى اللقاء الصامت في شرفتها.

فتحت الدفتر، وأمسكت القلم، وكتبت:

لم يكن الصباح ناقصًا.

لكن غيابك جعله ضعيفًا.

كأنك كنت الهواء الذي لا أراه.

لكني أشعر به...

أني أختنق بغيابك.

لم تكتب المزيد، أعادت القلم إلى مكانه، كأنها تترك له رسالة.

وانتظرت...

لكن لم يأتِ أحد.

لا صوت.

لا ظل.

لا نبض يتقاطع مع نبضها على السطر.

رفعت رأسها نحو الزاوية حيث اعتاد أن يظهر دون مقدمات.

لكن لا شيء هناك.

نظرت إلى القلم، ما زال مكانه، لم يتحرك.

همست:

- غريب... هذه أول مرة يغيب هكذا.

أمسكت القلم، وقررت أن تكمل وحدها.

أعرف أنك لن تقرأ.

وأعرف أنني لن أقول لك شيئًا مما سأكتبه.

لكنني تعبت من الصمت.

وتعبت من خيانة الحلم.

أغلقت عينيها قليلًا، ثم فتحتهما من جديد.

تنهدت، وأكملت.

كنتَ دائمًا هناك...

في الزاوية البعيدة من قلبي.

حيث أخبّئك عن الجميع.

حتى عن نفسي.

أحببتك... ولا أدري متى بدأ هذا الحب.

ربما بدأ حين بدأتَ تتجاهلني.

وربما نما كلّما صمتَّ.

كلّما نظرتَ إليّ بعينين لا تقولان شيئًا.

كنتَ حاضرًا، يا عزيز الروح، في كل شيء...

إلّا حياتي.

وكنتُ حاضرة، يا عزيز قلبي، في كل شيء...

إلّا قلبك.

ارتجفت يدها، لكنها عاندت الارتجاف ولم تتوقف، أكملت... بألم:

لم أكن أريدك أن تحبني.

كنت أريدك أن ترى فحسب.

أن تلاحظ ارتباكي حين تمرّ.

أن تفهم كيف أكتبك بين السطور.

كيف كنت أختار الصمت.

لأنني إن تكلمت فسينهار كل شيء.

سكتت قليلًا، ثم كتبت ببطء:

ثم جئت...

جئتَ ويدك تمسك بيد طفلتك، وتقول لي إنك بخير.

وإن الحياة مضت...

وأنا؟

أنا التي علّقت روحي بين "ربما" "ولو".

أنا التي ما زالت، كلّما سمعت اسمك، تنزف بصمت.

أنا التي، حين رأيتُ ابنتك تحمل اسمي، اختنقت.

رفعت يدها إلى عنقها، كانت تشعر حقّاً بالاختناق.

ثم كتبت:

كيف سأعيش وإيّاك تحت سقفٍ واحد.

ولم أشفَ منك بعد؟

سأكرهك...

يومًا ما، سأكرهك.

توقفت، قرأت الجملة ببطء، ثم كتبت تحتها:

لكن... ليس اليوم.

سقطت دمعة صغيرة على الورقة.

في تلك اللحظة، شعرت أنها تشتاق إلى مالك...

ذلك الكائن الحبري الذي اعتادت مشاكسَته في كلّ مرة تكتب فيها.

لو كان هنا، لقال لها بصوته الهادئ:

"أحببتِ... وانكسرتِ، لكنكِ ما زلتِ تكتبين عنه."

تشعر أنه يغبطها على موهبتها في شرح ألمها على الورق.

ارتشفت من فنجان قهوتها، لكنّ طرقات خفيفة على باب غرفتها جعلتها تفيق من أوهام عالمها.

أذنت للطارق بالدخول، فكانت الصغيرة، تطلب منها أن تأتي لتناول وجبة الإفطار.

تقدّمت من الصغيرة، وعانقتها بحنان، تحبّها كثيرًا، تشعر أنها نسخة مصغّرة منها، أمسكت بيدها، وخرجت معها إلى الخارج.

وعلى مائدة الإفطار، ألقت تحية الصباح وجلست، من دون أن تنظر إليه...

فعيناه تربكانها، وتخشى إن نظرت أن تضعف، فيكتشف بأنها ما زالت... عاشقة له.

لكنها كانت تستمع بألم إلى شهد وهي تغازله.

نظرت إليها...

إنها المُقرّبة.

وهي البعيدة.

لذلك، وجب عليها أن تفيق من أوهامها، قبل أن تنتهي الحكاية لصالحه كعادتها.

بعد انتهاء الإفطار، غادر كريم مع زوجته وطفلته إلى بيت أهلها.

نظّفت تالا البيت بهدوء، ثم اعتكفت في غرفتها.

أما سمر، فقد خرجت لزيارة صديقتها.

❁ ❁ ❁

اقترب كريم من هاني، الذي صُدم بعودته، لكنّه سرعان ما عانقه بحرارة —

فهو ابن عم شهد، وصديق كريم القديم.

جلسا يتحدثان عن أخبارهما، حتى تطرّق كريم إلى موضوع زواج هاني، ارتبك هاني لحظة، ثم أخبره بأنه تزوّج ابنة الجيران.

علّل زواجه منها بأنها يتيمة، وأنّ له منها الآن ثلاثة أطفال أشقياء، وحين سأله عن تالا — ألم يعجب بها؟

لقد أخبره سابقاً أنها كانت حبّ حياته، وأنه إن لم يتزوّجها، فسيقتل نفسه أو يَخطفها!

ثم علّل عدم زواجه منها بأن مشاعره لم تكن سوى إعجاب، وأنه الآن يحبّ زوجته كثيرًا.

ما صدمه أكثر من ذلك، أنه تزوّج زوجته بعد زواج كريم بأشهر قليلة فقط.

صمت... لم يعرف ماذا يقول، فقد تركه وهَمَّ بالرحيل.

أما الآخر، فارتسمت ابتسامة خبيثة على وجهه.

۞ ۞ ۞

مشى كريم في شوارع دمشق تائهًا، لقد عاش سبعة أعوام في حياةٍ لا تخصّه.

أدرك اليوم، من نظراتها، أنها عاشقة، ويمنعها كبرياؤها.

ظلّ يمشي حتى أسدل الغروب ظلّه البرتقالي على أبنية دمشق.

سار في شارعٍ ضيّق يعرفه جيدًا، كانت الحجارة القديمة تُذكّره بها... بخطاها، بضحكتها الخاصة، وبعينيها اللامعتين.

لقد تذكّر شقاوتها وروحها... قبل إعلان خطبته، ومن بعدها... انطفأت.

وضع يديه في جيبه، شعر أن ظهره قد انحنى، لا من التعب، بل من الثقل الذي يحمله في صدره.

كانت كلمات هاني تجلد قلبه بسياط الندم:

- تالا... لا، لم أحبها يومًا، أُعجبتُ بها بعض الوقت فحسب، وانتهى الأمر.

عاد يردد هذه الكلمات في ذهنه، وهو يعضّ على أصابعه ندمًا.

اتّكأ إلى جدار عتيق في حارة قديمة، ثم عقد زراعيّه.

وكلمات هاني تقسو على فؤاده فتزيده ألماً:

- كنتُ أجرّب... لئلا تفلت من يدي، لكنّي لم أتعلّق بها فعلاً.

لم يسمع حينها ما تبقّى من الحديث، كلّ ما تردّد في أعماقه جملة واحدة:

"لقد خسرتها في سبيل لا شيء."

ظلّ يسير في شوارع المدينة القديمة، شعر بأن كل شيء يضيق من حوله، حتى السماء.

قال في سره:

- كنتُ أحبك يا تالا، وكنتُ الوحيد الذي لم يقل ذلك.

توقف أمام نافذة قديمة، انعكست فيها صورته باهتة، مكسورة.

همس:

- اغفري لي لأنني أحببتك كثيراً، وكنتُ جبانًا.

ولو عاد به الزمن، فهل كان سيتصرف بطريقة مختلفة؟ ربما... ربما قال لهاني بصوت واضح:

"أنا من يحبها ولن أتركها."

لكن الزمن لا يعود، وهي لن تعود.

عاد إلى زوجته ليصحبها إلى المنزل، وهو يشعر بالخجل من نظرات تالا.

كيف سيصحح مفاهيمها عن زواجه من أخرى؟

وكيف ستفهم أنه ضحى في سبيل صديقٍ لم يُبالِ بتضحياته؟

ستكرهه بلا شك.

لن يجادلها أو يخبرها بما حدث.

تنهد بألم، وقرر أن يترك الأمور تأخذ مجراها، ويرى ما ستفعل به الأيام القادمة.

مرّ يومٌ على هذا الحدث الذي صنع في قلب كريم موجة من المشاعر المتضاربة.

صار يتجنب تالا بعينين تحملان دخانًا خجولًا، يهرب من رؤية وجهها المعاتب له دومًا.

❁ ❁ ❁

أما هي، فما زالت تتجاهله كي لا تبوح عيناها بحبٍ ما زال ينبض في صدرها.

لكن في أعماقها، كانت تعرف أن التهرّب ليس حلاً دائمًا.

وفي هذه الأثناء، اختفى مالك من دفترها.

صمتٌ غريب ملأ الفراغ، وغابت كلماته التي لطالما كانت ملاذها.

أمسكت قلمها، تلوّح به فوق الورقة البيضاء، تشعر أنها في حاجة إليه، إلى ذلك الصوت الذي لم ترَ صاحبه، لكنه حاضر دومًا بجانبها.

ثم كتبت:

مالك، هل تسمعني؟

أكتب هذه الكلمات وأنا أشتاق إلى صوتك.

ذلك الصوت الذي كان يملأ أركان غرفتي.

ولوجودك الذي كان يخفف من ثقل الوحدة.

لماذا غبت فجأة؟

هل هجرتني كما هجرَتْني ذكريات كريم؟

أحتاجك هنا بين السطور.

أحتاجك لنكمل الحكاية التي بدأناها.

غيابك، يا صاحب الحرف، ترك في نفسي فراغًا أكبر مما توقعت.

أما زلت تسمعني؟

أمازلت تسمع قلمي حين ينسج الحب على الورق؟

أنا أنتظرك.

أنتظر عودتك.

كي تملأ صمت غرفتي بصوتك، ووجودك.

مالك، لا تتركني وحيدة.

شعرت بأنفاسٍ خلف رقبتها، لم تلتفت، لكنّها قالت بصوتٍ مرتعش والقلم في يدها:

- مالك؟ هل أنت هنا؟ لقد غبتَ يومين... الفراغ بدا كجدارٍ ينهار حولي، أحتاجك الآن أكثر من أي وقت مضى.

جاءها صوته خافتًا، عميقًا:

- تالا... أنا هنا، لكنني لا أستطيع أن أكون كما تريدين، حاولتُ يا تالا، لكنني لم أقدر على ذلك، أنا نسخةٌ منه، ظلّ لا يُرى، صوتٌ لا يُسمع إلا في أعماقك.

التفتت إلى مصدر الصوت، وقالت بحزن:

- أعرف من تكون... أنت لستَ نسخةً منه، أنت صوتي... أنت من مدّني بالأمل حين اختفى الجميع.

- لكن ماذا لو اكتشفتِ الحقيقة؟ وهي أنك ما زلتِ تحبين الأصل، ووجودي ما هو إلا تعويض مؤقت؟ وغيابي عنك لا يعني سوى أن النسخة لم تعد مرغوبة...

تنهدت تالا، وقالت وهي تنظر إلى الفراغ:

- ألم ترَ ما فعل كريم؟ كيف تركني... من دون كلمة... من دون عذر؟ أما أنا، فقد احتضنتك في كل لحظة غياب، كنتَ أنت الحاضر حين غاب هو.

ردّ بصوت متقطع، يحمل وجع الغيرة:

- لكن هو... هو الأصل، حقيقي يا تالا، يملك دمًا ودموعًا، أما أنا... فأنا صدى قديم، لا يصمد أمام النسخة الأصلية.
- أنت أكثر من ظل، أنت من علّمني التحدث عن مشاعري، لا تقارن نفسك به، فمحبّتي لك... مختلفة.

ردّ عليها بصوت يكاد يختنق:

- لكن كيف أستمر؟ كيف أتغلب على كوني نسخة؟ أنتِ تكتبينني، لكنّك تذكرينه في كل مرة... تلهثين خلفه، وكأنني وهمٌ لا قيمة له.

أجابته والدموع تملأ عينيها:

- أريدك أن تفهم، أن قلبي... لم يكن يملك إلا حبًا واحدًا، فجئت وكنتَ الضوء الذي أنار عتمتي، والأمان الذي شعرتُ به في ظلمة غيابه.

سألها بصوت مكسور:

- هل تقبلين ظلًّا... سيظل في الظل، لا في النور؟ أم ستختارين الحقيقة، وإن كانت موجعة؟
- سأختار ما يملأ قلبي سلامًا... أنت جزءٌ مني، ولا يمكنني أن أتخلى عنك.
- أنا هنا، ولن أرحل، حتى لو كنتُ ظلًا... سأبقى ظلًا يضيء أحرفك. لكنني لن أكون عابرًا في حكايتك، سأكون الحرف الذي لا يُمحى، والنبض الذي يهمس بين السطور، ربما لا ترينني، لكنّ قلبي معك... كلما كتبتِ.

أمسك القلم، وبدأ يكتب في دفترها، في أعلى صفحة بيضاء...

هل تعلمين كم يؤلمني أن أكون ظلًا في عالمك؟

ظلًّا لا ترينه إلا حين تكتبين لي...

وأنتِ تتذكرين اسمه في صمتك.

أنا لستُ مجرد نسخة.

بل صوتٌ ينبض في قلبك.

فاعذريني إن ارتجف قلبي، حين أسمع اسمه يُلفَظ من بين شفتيك.

ظننت أنني أملكك.

وأن حُبي وحده يكفي ليبقى بيننا شيء حقيقي.

لكن الألم ينهال عليّ كظلٍ طويل.

وأرى الحيرة في عينيك... كأنك ما زلتِ تنتظرينه ليعود ويأخذك.

هل ستمنحينني فرصة؟

فرصة لأكون أكثر من حبر على صفحاتك...

لأكون الواقع الذي تعيشينه.

لا مجرّد حُلم كتبته يداكِ.

وضع القلم، فعمّ السكون أرجاء غرفتها، وغاب... كأنه ليس له مكان فيها أصلاً.

نظرت إلى الزاوية، فلمحت خيوط دخانٍ أبيض تتطاير في الهواء.

كيف يكتب وهو بعيد عن القلم؟

شعرت بالسكينة... لأنه عاد إليها، ومسح عن قلبها أثر غيابه.

ما أشدّ فرحها باهتمامه!

قرأت ما كتب، وابتسمت.

أما هو، فابتسم في عتمته، كأن ابتسامتها أخبرته أنها لم تعد تراه مجرّد حبر، بل جزءًا من نبضها.

❁ ❁ ❁

أما كريم، فلم يشعر بالراحة إطلاقًا؛ فقد مرّت أيّام على تلك المواجهة التي كشفت الحقيقة، وأسقطت قناع الواقع المُغلَّف بالندم.

كانت هذه الأيام ثقيلة على قلبه، كلما لمحها من بعيد، تنكمش روحه كطفل مذعور، ويفقد القدرة على التنفس، كأن الهواء يخونه حين تمرّ من جواره.

يراها تقف في شرفتها، تضحك مع طفلته الصغيرة، يرى نورها يضيء المكان.

يحاول الاقتراب منها، لكنه لا يستطيع أن يخبرها، لا يستطيع أن يقول لها الحقيقة التي تنهش قلبه كل ليلة:

لقد تزوج من غيرها، لكنّه لم يحب أحدًا سواها.

كان يردد لنفسه مرارًا وتكرارًا:

"ستكرهني"

وفي كل مرة يحاول فيها الاقتراب، يرتدّ صدى تلك الكلمات، يضرب على إيقاع قلبه، يذكّره بالخوف والرفض المحتوم.

"ستكرهني لأنني تخليت عنها حين كانت تنتظرني".

"ستكرهني لأنني وضعت قلبي تحت قدم صداقة، لا تحت يدها".

كيف له أن يشرح؟

كيف يسوّغ قراراته المتخاذلة باسم التضحية؟

كيف يقول لها إنه اختار غيرها لأنه صدق كذبة صديقه؟

كيف يهمس لها أنه لم يتزوجها حبًا، بل هربًا؟

طبعاً، لن تصدقه...

لأن الوجع الذي تركه فيها أعمق من أن تسوّغه الكلمات.

ولأنه حين غاب لم يترك وعدًا.

ولا حتى وداعًا.

بل ترك فراغًا وذاكرة لا تُمحى.

كان كل يوم يمر به من دون أن يجمعهما حديث، يراكِم في قلبه خطيئة لا يعرف كيف يعتذر عنها، ويخاف اليوم الذي ستعرف فيه الحقيقة، لأن ذلك اليوم سيكسر ما تبقى من مودة بينهما.

❁ ❁ ❁

خرجت تالا من غرفتها بصمت خفيف يشبه خيباتها، تمسك بيدها فنجان قهوتها الفارغ، عيناها مرهقتان من السهر، من الكتابة، ومن محاولة استدعاء مالك الذي اختفى مجدّداً فجأة من دون سبب.

لكنها توقفت حين وجدت كريم في الصالة.

لم تتوقّع وجوده الآن، وليست مستعدّة لنظراته التي ارتفعت فور أن لمحها.

ارتبكت...

أرادت أن تعود أدراجها فورًا.

أن تختبئ خلف الباب.

خلف الورق.

خلف مالك.

لكنه ناداها بصوتٍ خافتٍ حاد:

- تالا... انتظري.

تجمّدت خطواتها.

لم تلتفت.

ظلت تنظر إلى الفنجان في يدها، كأنها تبحث فيه عن مهرب.

لكنه لم يمنحها هروبًا رحيمًا، بل وقف واقترب منها... حدّ الاختناق.

قال بصوتٍ مبحوح:

- كلانا يتجنّب الآخر... لماذا في رأيك؟

همست دون أن ترفع نظرها:

- بعض المسافات... تكون أحيانًا أرحم من اللقاء.

أطرق رأسه لحظةً، ثم قال بهدوء:

- وأحيانًا... يكون اللقاء هو السعادة التي نتمناها.

أرادت أن تصرخ فيه، أن تسأله:

لماذا تزوّجت؟

لماذا تركتني؟

ولماذا عدتَ الآن؟

لكنّه سبقها بالكلمات، وقال بصوت منكسر:

- كنتِ أمامي... لكنني غبيّ، غبيّ إلى درجة أنني لم أفهم نظرات الحب المشعّة في عينيك.

رفعت عينيها إليه أخيرًا، تأملت شحوب وجهه... كأنه لم ينم منذ أن وطأت قدماه أرض هذا البيت.

قالت بصوت خافتٍ يختلط بالمرارة:

- ما فائدة كلامك الآن؟ أن تصل بعد فوات الأوان؟ أن تكون هنا... لكن قلبك في وادٍ آخر؟ أن تنظر إليّ وكأنك تودّ الاعتذار عن شيءٍ ما... ثم لا تقول شيئًا؟"
- ربما لأنني كلّما حاولتُ الاقتراب، أستيقظ على حقيقة أنني رجلٌ متزوّج.

أومأت برأسها، ثم قالت وهي تبتعد:

- إذن... لا تقترب منّي.

استدارت إليه، نظرت في عينيه، وقالت بصوتٍ منكسر لكنه ثابت:

- أنا لا أحتمل نصف حضور... ولا أريد أن أكون خيارًا مؤجّلًا في حياتك. إما أن تبقى بعيدًا، وإما ترحل عن قلبي نهائيًا... أعرف أنك رجل متزوّج، لذلك لم أحمّلك يومًا نظرةً خاصّة، لئلّا أُحزِن زوجتك.

ثم نظرت بعيدًا، كأنها تتحدث إلى ظلٍّ آخر خلفه، وتابعت:

- وأنت لا تقترب... لأننا لن نلتقي يومًا في طريقٍ واحد.

صمتت، وكأنها تجمع بقايا قوتها المتناثرة، ثم أكملت بصوت خافت فيه كل النضج والألم:

- نحن لسنا أحرارًا يا كريم.

واستدارت بثبات، مضت نحو المطبخ تعدّ فنجان قهوة آخر، علّ مرارة القهوة تواسي مرارة قلبها.

أما هو، فمضى إلى غرفة والدته... كطفلٍ خائف، يبحث في حضنها عن عزاءٍ لا يشبه خيبته.

❁ ❁ ❁

كانت سمر تجلس على الأريكة في غرفتها، وفي يدها هاتفها، تحادث صديقتها نوال التي لا تكفّ عن الإلحاح...

منذ ذاك اليوم الذي استمع فيه منتج لبناني إلى صوتها صدفة، أُعجِب بنبرتها وأدائها، وكلف نوال — صديقة سمر القديمة والمقربة — بإقناعها بالمضيّ في حفلة غنائية تكون سمر بطلتها.

صاحت نوال من الطرف الآخر، بحماسة لا تخلو من إصرار:

- صوتكِ كما هو، لم يتغير... بل أصبح أعمق، وأنضج، قال لي المنتج اللبناني إنه يريدكِ أنتِ، وحدكِ، سيتكفّل بكل شيء... كل ما عليكِ أن تكوني شجاعة! يكفيكِ اختباءً يا سمر!"

ابتسمت سمر بخجل، ورفّت بعينيها كأنها تستحي من الحلم ذاته، ثم تمتمت، وكأنها تبوح بسرّ دفين:

- بعد كل هذه السنين... أغنّي؟ وعلى مسرح؟

قالت نوال بإصرار عذب، كأنها تلقي حجتها الأخيرة:

- صوتكِ ليس لكِ وحدك، يا سمر... لا يحقّ لكِ حرمان العالم من هذا الصوت، ربما... ربما هذه فرصتكِ الذهبية، لا تضيّعيها!

لكن قبل أن تهمّ سمر بالإجابة، فُتح الباب فجأة — من دون طرق، من دون استئذان.

دخل كريم بخطى متسارعة، وملامح واجمة.

أغلقت سمر الهاتف على عجل، واختفت الابتسامة من وجهها، كأنها لم تكن سوى ومضة حلم.

نظرت إليه باستغراب ممزوج بحذر.

لم ينظر إلى الهاتف، ولم يسأل.

كان واضحاً أنه جاء مثقلاً بهمّ لا يحتمل التأجيل.

جلس على السرير المقابل للأريكة، أطرق برأسه وكأن الأرض صارت فجأة أكثر اهتماماً به من البشر، سألته سمر متوجّسةً:

- كريم، ما بك؟

رفع عينيه نحوها، وعيناها غارقتان في عتمة السؤال، ثم قال:

- هل يمكن أن نخسر مَن نحبّ فقط لأننا أخطأنا في لحظة؟

صمت لحظة، ثم تابع...

- كنتُ أظن أنني أتصرف بنُبل، قال هاني إنه يحبها، فانسحبت، أقنعت نفسي أنني أتنازل في سبيله، واكتشفتُ حين عدت... أنه لم يحبها قط، لم يفكر بها أصلاً، قالها عابرًا... وأنا صدّقته، وأطفأتُ في قلبي نورها.

قالت سمر بنبرة هادئة:

- لماذا لم تسألها حينها؟ لماذا لم تخبرها الحقيقة؟

أجاب وهو يخفض رأسه:

- لأنني جَبُنت، خشيتُ أن أبدو أنانيًا... خشيتُ أن تختاره فأموت، أو تختارني فأنسحب كرمى له، واليوم... كلّما نظرت إليّ، أشعر أنني سرقتها من نفسها.

شرد قليلاً بألمه، ثم قال:

- من حقها أن تُحِب... وأن تُحَب.

أطرقت سمر برأسها، ثم همست:

- تالا لم تعد كما كانت... أصبحت أكثر صمتًا، وأكثر حذرًا.

ثم رفعت رأسها إليه، ونظرت في عينيه مباشرة، وقالت بنبرة هادئة لكنها صارمة:

- وإن كنتَ سببًا في ألمها... فلا تكن سببًا في موتها البطيء، لا تقترب منها... لا تفتح بابًا تعلم أنه يقودها إلى وجعٍ أكبر.

أطرق كريم برأسه، وصمت قليلاً قبل أن يرفع يده إلى صدره ويضغط على موضع قلبه، وقال:

- لكنها ما زالت هنا، يا أمي... في كل مكان، في كل شيء... حتى اسم طفلتي يؤلمني.
- إذن، لا تقترب منها، ولا تزرع في قلبها وهمًا جديدًا، إن كنت تحبها حقًّا، فابتعد عنها، لا تجعلها تعيش صراعًا آخر.

أومأ برأسه وغادر إلى غرفته.

❁ ❁ ❁

لقد ارتاح كثيرًا لأن شهد لا تبقى في البيت، بل تذهب يوميًا إلى أهلها وتعود مساءً، على الأقل سيعيش في راحة، ولن يكون حذرًا في تصرفاته.

وقف أمام باب غرفتها متذكّراً كلمات والدته، حتى هو لاحظ صمتها الحزين.

أدرك أنها تغيرت عمّا كانت عليه، لم تعد تلك الفتاة المرحة التي يعرفها، لم تكن حزينة حين تجالسه، بل ضحكاتها تشقّ عتمة الليالي.

أما الآن، فيبدو له كأنّه يقف أمام رماد فتاة لم يعد يعرفها.

أين البهجة في عينيها؟ وأين سعادتها بقربه؟

يحسد هذه الغرفة لأنها تحتضنها بين جدرانها.

لكنه اشتاق أن يزورها في غرفتها، يتحدثان في كل شيء، ثم تنام على كتفه كما في الأيام الخوالي.

كانت أيامًا جميلة مضت، وما عاد يشعر بدفئها.

ابتعد عن الغرفة، وغادر البيت بأكمله.

❁ ❁ ❁

جلست تالا أمام دفترها المفتوح، تفرك يديها وتستدعي الإلهام بعقلها.

نظرت إلى الصفحة البيضاء، فبدت لها كمرآة لا تعكس سوى فراغ قلبها.

مرّت أيام من دون أن يزورها، لم يطرق صوتُه أفكارها.

لم يسألها: ماذا ستكتبين اليوم؟

رفعت القلم ببطء، وانسابت الكلمات من بين شفتيها همسًا:

أيها الغائب...

أتعلم كم تخونني الكلمات حين تغيب؟

أنا لا أكتب لأنني بخير.

بل لأنني أتألّم.

أكتب لأن داخلي فوضى.

لا يسكنها إلا حضورك.

توقّفت، عضّت على شفتيها، وشهقت بصوتٍ خافت...

لقد كانت تكذب.

لم تكتب لمالك فقط، بل كانت تكتب لنفسها، لذلك الجزء البريء منها.

الذي صدّق أن الحب لا يُوجِع.

أنّ الصمت لا يقتل.

وأنّ الهروب نجاة.

"كريم"...

اسمه اخترق النصوص من دون أن يُكتَب.

ظهر وجهه في سطورها.

كظلٍ بين الحروف.

تساءلت:

"كيف لرجلٍ أن يخلعكِ من قلبه، كما يخلع معطفًا في أوّل الربيع؟

كيف له أن ينادي ابنته باسمكِ، ثم يعاملكِ كأنكِ لا تشبهينها في شيء؟"

هزّت رأسها بعنف، ومسحت دمعة بلّلت خدّها من دون استئذان.

أكملت الكتابة، والقلم يرتعش في يدها، كأنّ حروفها تهرب منها أو تفضحها...

لم أعد أعرف من أنا.

هل أنا تلك التي كنتها قبل أن أكتب؟

أم التي خُلقت من سطورك يا مالك؟

أم تلك التي ما زالت تحب من تخلّى عنها، وابتسم لغيرها ولم يرفّ له قلب؟

صاح صوتٌ في داخلها فجأة، حادًا كصرخة مكتومة:

"اكتبي له!"

لكنها بقيت جامدة، القلم في يدها يتردد، والورقة تنتظر ولا شيء يُكتب.

- لمن أكتب؟

سألت نفسها بصمت موجوع.

- لظلٍ يشبه الحبيب؟ أم لحبيبٍ صار ظلاً؟ أم لذكرى تهيم في فراغ لا يشبهني؟

مدّت يدها إلى نافذتها، فتحتها لتستنشق ليل دمشق، ليست النجوم كافية، ولا الهواء، ولا هذا الصمت الذي يخنقها برفق.

أغمضت عينيها، ثم فتحتهما، وكتبت الجملة الأخيرة في الصفحة:

أشتاقك يا من جعلتَ من الحبرِ خلاصًا، ومن غيابك جُرحًا لا يلتئم.

أغلقت الدفتر، لأن ما يُكتب من الوجع لا يُقرأ، بل يُبكى.

همست:

- مالك... إن كنت تسمعني، عُد... إني أحتاجك.

لحظة صمت ثقيلة تبعتها رجفة في الهواء، اهتزّ القلم أمامها، ثم سُمع صوت هادئ... لكنه بارد، مجروح:

- لماذا استدعيتِني من جديد؟

شهقت... لقد عاد.

لكن صوته ليس كما اعتادت، كان بعيدًا، كأنّه عاد من خلف خيبة.

همست:

- أين كنت؟ لم أعد أُحسِن الكتابة دونك.

رد بصوت منخفض، كأن الحروف تخدش لسانه:

- ولماذا تكتبين لي ما دمتِ قد وجدت الأصل؟ لماذا تطلبين حضور الظل في الليل، وأنت تعاتبين الأصل في النهار؟

ارتبكت، قامت من مكانها، نظرت حولها تبحث عن وجهه، ثم تنهدت بصوت هادئ:

- أنت لست ظلًا، أنت كل ما تبقى مني.

رد عليها بسرعة حادة، مقاطعًا كلامها:

- لا تكذبي على نفسك، أنا مجرد انعكاس لرجل أحببته وما زلتِ تحبينه.

صمتت، ذرفت دمعتين ثم قالت:

- هل جئتَ لتعاقبني أم لتواسيني؟ لم أطلب من قلبي أن يرتجف عندما رأيته، هو خانني أيضاً كما خنتني أنتَ حين اختفيت.

سكت قليلاً ثم قال بصوت منخفض كأنه يبكي:

- هل تعرفين لماذا غبت؟

انتظر قليلاً إجابتها، لكنها فضّلت الصمت على أن تمنحه جواباً يرضيه، فأجاب بعد أن يئس منها.

- لأنني خفتُ، خفتُ أن تريه، فتتذكري شدّة هشاشتي، شدّة التزييف التي كنت عليها؟
- أنت لم تكن يوماً مزيفاً، كنتَ الوحيد الذي سمعني دون أن أنطق بكلمة، شعرتَ بي حين خذلني الجميع.

قال بحزن مرير:

- ولكنك لا تبكين بسببي، بل بسببه، أحاديثك كلها عنه، صمتك له، وجعك باسمه، ودمعتك باسمه.

صرخت وهي ترتجف، قائلة:

- لم أبكِ يوماً حين خذلني، كنتُ قوية وصامتة، كتبتُ عنه آلاف الجمل، لكنني لم أبكِ إلا أمامك، حين تعيد كتابة جرحك، تتألم من جديد، أنت الشاهد الوحيد على ضعفي.

مسحت دموعها، واقتربت من الزاوية كأنها تراه، ثم همست:

- أتفهم الآن؟ أنا لا أبكيه، بل أبكي نفسي حين كنتُ معه.

ارتعش صوته وهو يقول:

- هل بقي لي مكان فيك؟ أم سأُطوى كما تُطوى الصفحة الأخيرة حين يعود بطل القصة الحقيقي؟
- بعض الأبطال لا يولدون من دم، بل من حبر.

تنهدت، وعادت إلى طاولتها، جلست، فتحت الدفتر، أمسكت القلم، وكتبت:

أنت بطل روايتي يا مالك، وإن عاد كريم، أنت الحبر الذي لم يجرحني حين كان هو السكين.

سرق القلم في غفلة منها وكتب:

إلى التي أحبت حد الانهيار، وصمتت حد الاحتراق.

رأيتها هذه الليلة، بيدها فنجان قهوتها الفارغ، وكأنها تحمل قلبها الميت بين ضلوعها.

كانت تمشي كمن لم تعد تثق بالأرض، وكأن الذكريات تسحب خطواتها إلى الوراء.

في عينيها وطن لم يجرؤ أحد على عبوره، وفي وجنتيها وجع لم يشعر به الحبيب.

أنا لستُ كريمًا، ولا أشبهه إلا بقدر ما يشبه الصدى الصوت.

كان حاضرًا، وكنتُ أنا انعكاس خسارتك له، لكنني كنت الوحيد الذي رأى نزيفك.

الوحيد الذي لمس جرحك ولم يزده ألمًا.

أحببتك كما لم يحبك هو.

لكنكِ كلما رأيتِني، تذكرتِه.

وكلما كلمتِني، كنت تنتظرين رده.

أنا ظلّه في قلبك، وظلّك في الورق.

تمنيتُ لو جئتِ إليه متأخرة.

وتمنيتُ لو أنه جاءك مبكرًا بما يكفي لتغلق الأبواب قبلي.

لكننا التقينا في زمن خاطئ.

حيث لم أكن حقيقيًا بما يكفي.

ولا كنتِ أنت منسية بما يكفي.

وها أنت تواصلين الكتابة.

وأنا سأبقى أختبئ في الهوامش.

أراقبك من سطرٍ إلى آخر.

أحتَرِق بصمت، وأحبّك بلا صوت.

أنا الظل الذي لا يراه أحد.

"مالك".

بعد أن كتب تلك الكلمات، انسحب من الورق بصمت، فلم يعد صوته يُسمع، ولم تهتز الصفحات، ولم تكتب يدها شيئًا بعده.

دمعة واحدة سالت على الورق، وبلّلت اسمه.

❁ ❁ ❁

جلست نوال بجوار سمر في صالة البيت، تتحدثان في كل شيء، أعدّت تالا القهوة لهما، ثم هرعت إلى غرفتها لتُفلِت من أسئلتهما الفضولية، خصوصًا أنها لا تعرف نوال جيدًا، رغم قربها من خالتها.

استأذن كريم من ضيفة والدته، ثم غادر البيت، أما سمر، فلاحظت ارتباك صديقتها، وأدركت ما يجول في خاطرها، وعندما خيم الصمت على الاثنتين، كسرته بسؤال غير متوقع.

- لم أرك منذ أسبوع، هل الخوف قد انتصر أخيرًا؟

ابتسمت نوال، ثم زفرت طويلًا، وكأنها بسؤالها أزالت حملاً ثقيلاً لم تستطع حمله وحدها، فقالت:

- ولماذا الخوف، وأنا من أصرّت عليك أن تذهبي معي؟ حتى اتصالات المنتج لم تتوقف أبدًا، أرسلتُ له تسجيلاً لكِ حين غنيتِ في آخر لقاء جمعنا، قال لي بالحرف: "هذه المرأة يجب ألا تصمت بعد الآن."

خفضت سمر رأسها. صمتت، ليس لأنها لا تملك كلمات، بل لأن ما شعرت به أعمق من أن تُعبّر عنه اللغة. ثم تمتمت:

- أنا جدة الآن، افهمي يا نوال... وابني بالكاد يحتمل أن يراني أكتب في دفتري القديم عن مغامراتي على المسرح، فكيف لو علم أني أفكر في العودة إليه؟

وضعت نوال يدها فوق يد سمر وقالت بصوت هادئ، لكنه خرج حازماً:

- كأنك تتحدثين عن زمنٍ لا حق لنا فيه، من قال إن للغناء عمراً؟ ومن قال إن الشغف يخجل من التجاعيد؟

ردّت سمر بعينين دامعتين:

- ليت الأمر بهذه السهولة، أنا لا أخشى الناس، بل أخشى كريم، إن علم فسينهار الجسر المتبقّي بيننا، هو يرى صوتي مجدافاً سحب والده بعيداً عنه، كيف سيحتمل رؤيتي أعود.

قالت نوال برفق وهي تشدّ على يد سمر:

- أنتِ تعلمين أن والده تخلى عنكِ من دون أسباب، انسحابه ليس بسبب موهبتك، ثم إن كريماً صار رجلًا يا سمر، رجلًا يملك قصته وخياراته، لا تفكّري بما يفكّر، لأنكِ إن فعلتِ، فستظلين رهينة ذنوبٍ لم ترتكبيها.

ردّت بصوت مكسور، وعيناها تتأملان سُحب السماء من خلف النافذة، كمن تبحث عن عزاءٍ في الأفق البعيد:

- أخاف يا نوال... أخاف أن أحلم متأخرة، أن أنجح متأخرة، أن أنكسر أمام جمهورٍ لم يسمع حزني... جمهورٍ لا يعرف أن صوتي مرّ أولًا من بين دموعي قبل أن يخرج من حنجرتي.

قالت نوال بعينين تقدحان إيمانًا، وهي تضغط على يد سمر بحنانٍ حازم:

- لا يحتاجون أن يعرفوا حزنك، سيشعرون بألمك حين يسمعون صوتك، صوتك ليس حنجرة فقط، بل جرحٌ جميل... وإن لم تغنّي الآن، فمتى؟ أحين يصمت داخلك إلى الأبد؟ أم حين يُدفن شغفك تحت ركام الخوف؟

صرخت سمر، صوتها شقّ سكون البيت كطعنة:

- أنا أخشى أن يكرهني كريم...!

فخرجت تالا مسرعة على وقع الصرخة، وجهها ممتقع، وعيناها متسعتان دهشة وقلقًا.

أما نوال، فوقفت بهدوء، أمسكت بحقيبتها، ثم قالت بنبرة صارمة لكنها دافئة:

- سيكرهك إن كذبتِ على نفسك، لا إن كنتِ أنتِ.

ثم فتحت حقيبتها، أخرجت منها ورقة صغيرة مطوية بعناية، مدت بها إلى سمر، وقالت بابتسامة باهتة:

- هذا عنوانه... المنتج بانتظارك في بيروت، وهو مستعدّ أن يأتي إن وافقتِ.

وضعت الورقة على الطاولة، ثم استدارت وغادرت البيت بهدوء.

أما سمر، فبقيت وحدها، تنظر إلى سحب السماء المتجمعة خلف النافذة،

كأنها تبحث بينها عن نبوءة... أو عن شجاعة.

اقتربت تالا من خالتها ببطء، قرأت في ملامحها شيئًا من التيه، ذلك النوع من الشرود الذي لا يكتمل إلا حين يتشابك الحاضر مع ألم قديم.

جلست جوارها بهدوء، وضعت يدها على كتفها بحنان، كأنها ترسل لها رسالة صامتة: "أنا معكِ... قلبًا وقالبًا."

نظرت إليها سمر بعينين غارقتين، ولم تقل شيئًا.

أما تالا، فلم تشأ أن تكتفي بالصمت هذه المرة، بل همست بصوت رخيم:

- أتعلمين يا خالتي؟ كل الذين أجّلوا أحلامهم في سبيل غيرهم، انتهى بهم الأمر بالعيش في ظلال الآخرين، أما الذين قرروا أن يخوضوا الحياة بكل ما فيها، فحتى لو تعثروا، عادوا منها أكثر صدقًا، وأكثر حياة.

ابتسمت سمر بسخرية خفيفة، وقالت:

- ومن قال إنني أملك من الوقت ما يكفي لأبدأ من جديد؟

ردّت تالا من دون أن تنتظر إذنًا:

- ومن قال إن البداية تحتاج إلى وقت؟ إنها تحتاج إلى نبض فحسب... وأنتِ ما زلتِ تنبضين، صوتكِ حيّ، وحلمكِ حيّ، وشغفكِ لم يغب، بل أنتِ أغلقتِ عليه الباب، وأخفيته في خزانةٍ خشبية... خلف قميص كريم المدرسي.

ضحكت سمر بمرارة، وهي تسترجع تلك الليالي التي كانت تغنّي فيها خلسة لصغيرها، ثم قالت بصوت يختلط فيه الحنين بالخذلان:

- كان صغيرًا جدًا... وكنتُ أخاف أن أتركه بسبب أغنية، كنت أغني له في عتمة الليل حتى ينام، أمارس موهبتي له، لا لنفسي.

ثم ابتسمت فجأة، كأن الذكرى فاجأتها بلحظة دفء، وأضافت:

- كان يبتسم في أحلامه كلما همستُ له بمقطع من أغنية لأم كلثوم.

ضمّتها تالا إلى صدرها، بحنان يشبه دفءَ أمّ تُعيد الطمأنينة لقلب ابنتها، ثم همست في أذنها:

- والآن... لم يعد طفلاً، يا خالتي، صار رجلاً، لم يعد يخاف أن تتركيه وحده، بل سيخاف من صمتك، من حزنك، من أنكِ تحولتِ من مغنية تضيء المسارح، إلى امرأة أطفأت كل شيء بداخلها في سبيله.

صمتت قليلاً ثم أكملت:

- كأنك لا تستحقين الحياة، إلا بقدر ما تمنحينها له...

ثم ابتسمت ابتسامة صغيرة، وربتت على قلبها:

- لقد أعطيتِه كل شيء... فلا تبخلي على نفسك الآن ببداية.

مسحت سمر دموعها التي انسكبت رغمًا عنها، ثم أكملت تالا بثقة صادقة:

- خالتي، أنا أحب صوتك، وأحبك أكثر حين تتحدثين عن الموسيقى، حين تضيء ملامحك كلما تذكرت المسرح.

نظرت إليها سمر بعينين تجمعان بين الحزن والأمل، فأردفت تالا:

- ذاكرتك لا تعيش في الماضي فقط، بل تطلب منك أن تلحقي بها.

ردت سمر بصوت مبحوح، وكأنها تكتم مشاعرها:

- وكريم؟ ماذا عن كريم؟ إذا عرف، فسيحزن... سيظن أني اخترت الشغف على حسابه.

تمتمت كمن تروي قصة تعرف نهايتها مسبقاً:

- سيحزن، نعم، يوماً أو أسبوعاً... سيغضب، سيصرخ، وربما يغلق بابه في وجهك، لكنّه سيعود... سيعود إليك كطفل صغير يخبئ رأسه في حجرك، ويقول لك: "كنتِ الأجمل حين غنيت لي، وعندما غنيت للجميع.

أغمضت سمر عينيها، وطافت في ذهنها صور مسرح قديم وثوب وردي ارتدته في حفلة الجامعة، وابتسامة والد كريم وهو يصفق لها، فتحت عينيها وهمست بصوت حالم:

- ترين؟ أحقاً لم يفُتِ الوقت؟

أجابتها تالا بعينين تلمعان أملاً:

- لم يفت يا خالتي، مادام لكِ صوت يريد أن يُسمع، هذا الحلم لم يمت، بل كان نائمًا، وآن الأوان لتوقظيه وتحمليه على كتفيكِ، لتعودي إلى الأضواء مجددًا.

وقفت سمر، خطت بضع خطوات ثم تناولت هاتفها من على الطاولة. ابتسمت تالا وقالت وهي تقف:

- هل ستتصلين به؟

أومأت سمر، وعيناها تشعّان إصراراً:

- نعم، سأقول له إن سمر لم تمت، وإنها ما زالت تنتظر أن تنصت لها الدنيا.

ضغطت على الرقم وقلبها ينبض كأنه يغني أول مرة، وابتسامة ناعمة تسللت إلى وجهها، كأن الحياة تنتظر هذه اللحظة منذ سنين.

أما تالا، فانسحبت إلى غرفتها، تاركة لها مساحتها الخاصة.

❁ ❁ ❁

أمسكت القلم، تنفست ببطء، تأملت الصفحة البيضاء قبل أن تغوص في الحبر، ثم كتبت، وأول مرة لم تكتب عنها:

في إحدى زوايا البيت، امرأة تشبه الصمت ليس لأنها ساكنة، بل لأنها متعبة من الحياة.

كأنها اختارت أن تطوي ملامحها في درج داخلي، وتخفي صوتها كما يُخفى الوشم القديم تحت كم قميص طويل.

كانت تشبه الأغاني التي لا تُذاع، القصائد التي لا تُنشر، والبوح الذي لا يُقال.

وكلما ضحكت، يرتجف خلف ضحكتها شيء ما.

لم أرَها يومًا حزينة، ولم أرها يومًا سعيدة أيضًا، كأنها تجمع الأيام في صمتٍ ثقيل.

واليوم، خلال وهلة، خيّل إليّ أنها ترددت بين الحياة والموت؛ ليس الموت الجسدي، بل ذلك الموت الذي يشبه النسيان، حين تصبح المرأة ظلًا لغيرها، لا ظلًا لنفسها.

رأيتُ شيئًا يهتز في داخلها، ربما رعشة من ماضي بعيد، أو صدى لحن قديم ما زالت تحتفظ به رغم الغبار.

خالتي هذه نسيت أن تكون امرأة لتصبح أماً كاملة، واليوم قررت أن تعود لنصفها الآخر.

وضعت القلم فوق الصفحة، وقرّبت دفترها إلى صدرها، كأنها احتضنت ما لم تستطع قوله وجهاً لوجه.

ثم أضاء الحبر فجأة، كأن مالكاً قرأ الكلمات، وكأنه على وشك التعليق على ما كتبت.

انطفأ ضوء المصباح المتوضع على المكتب تلقائيًا، وساد الصمت، ثم ظهر صوت مالك عميقًا، كأنه يخرج من خلف سطور كلماتها:

- أأنتِ تكتبين عنها أم عنك؟

سكت قليلاً، ثم ابتعد الصوت وخرج من تلك الزاوية المظلمة، وقال بصوت خافت:

- كلماتك ليست عن امرأة خبّأت عمرها فحسب، بل شعرتُ أنها عنك، عن خوفك من تكرار الأمر، من أن تكملي حياتك مثلها.

ثم ارتفع صوته قليلاً وقال بمرارة:

- هل كتبتِ عن سمر لتنقذيها أم لتنقذي نفسك من وهم الغياب؟

عمّ الصمت أرجاء الغرفة، إلا من همس الأشجار المداعب نسمات الخريف، ثم عاد صوته بحماسة قائلاً:

- كلماتك اليوم جعلتني أغار منها... من خالتك، من صوتها، لأنني انتظرت في الظل وحيدًا لتكتبي عني.

بصوت يكسوه الألم، قال مُكملًا:

- لكنني تذكرت أنني مجرد ظل... أليس كذلك؟ أظهر فقط حين تكتبين، وأعيش بين سطورك فحسب، اعذريني إن كنت أغار من كل ما تسطره يدك، حتى من نساء لا أعرفهن.

اقترب الصوت منها حتى غدا همسًا يقف عند حدود أذنها.

قال لها:

- تالا، اكتبي عنك فقط، وعنّي أيضًا، اكتبي لتعيشي، لا تحاولي إنقاذ أحد غيرنا.

أضاء المصباح الموضوع على المكتب كأنّ يدًا خفيفة ضغطت على الزر من خلف ستار الحكاية، ثم بدأ الحبر ينسكب على صفحة بيضاء، كأن من يكتب قلب لا جسد.

أنتِ تشبهينها أكثر مما تعترفين.

ولكن كليكما تأخر عن الحياة.

ليس لأن الحياة لم تنتظركما، بل لأنكما تأخرتما في الخروج إليها.

خبّأت سمر صوتها خلف جدران البيت، وأنتِ خبأتِ قلبك خلف دفاترك.

إن كانت تخشى نظرات ابنها، فأنتِ تخشين ملامح رجل ما زال يعيش فيك رغم الغياب.

لكن ما لا تعرفينه، أن العالم لا يمنح الجوائز إلا لمن يصرخ، لمن يقف على المسرح دون خوف من السقوط، ولمن يكتب حتى وإن ارتجفت يداه.

وضع نقطة في آخر السطر، انتظر وانتظرت، تردد، ثم أكمل:

تالا...

أنا أغار من الحياة حين تقتربين منها.

أغار من كل ما يمنحك أملاً بأن تكتبي دوني.

ربما لأنني خُلقتُ لأكون في دفترك كظلك لا بديلًا.

ولأنني أعلمُ أنك إن عشتِ أخيرًا، فربما لا تعودين إليّ، فاعذريني.

نادتها خالتها، فوضعت القلم وانسحب الظل إلى العتمة، بينما قرأت ما كتبه، ثم أغلقت دفترها وأطفأت ضوء المصباح.

خرجت لتلبية نداء خالتها، فوجدت الجميع جالسًا إلى مائدة العشاء، فجلست إلى جوار تالا الصغيرة، وشاكستها قليلًا.

تبادلت أحاديث قصيرة مع شهد، وكانت سمر على غير عادتها الصامتةً مبتهجة، سعيدة.

أما كريم، فكان يسترق النظرات إلى تالا بين الفينة والأخرى.

كانت جلسة عائلية ممتعة، جذبت تالا إلى أحاديث شهد، فاستمعت، وابتسمت، وكأن شيئًا من دفء البيت تسلّل إليها.

ثم جلست وإياها في الصالة، تتحادثان في كل الأمور، وشاركهما الباقون دفء اللحظة.

أوّل مرة، لا تهرب تالا من تجمع العائلة، ولا تغيب سمر عنه.

ربما لأنّ تالا وجدت في مالك ما تتمناه في كريم.

ومع أن كريماً ما زال يسكن زاوية صغيرة في قلبها، إلا أنها تحاول الابتعاد عنه، كرمى لشهد، وربما لمالك الأثر الأكبر في ذلك.

انقضت السهرة العائلية، وعادت إلى غرفتها تحمل فنجان قهوة.

وضعت الفنجان على الطاولة، لاحت على وجنتيها ابتسامة باهتة، من أثر دفء العائلة الذي سكن قلبها ساعاتٍ قليلة.

أمسكت القلم، وفي صدرها كمٌّ هائلٌ من المشاعر.

فتحت دفترها، وبدأت تسطّر الكلمات بقلبٍ يرتجف:

كانت الليلة دافئة على نحوٍ مؤلم...

دافئة لأنني لم أكن فيها وحيدة.

ومؤلمة لأنني كنت الوحيدة التي تبتسم، بينما قلبي يتفتّت في صمت.

ضحكة الصغيرة التي نادتني باسمها، ذاك الاسم الذي سرقته مني.

وفي صوتها نَبضُ حياة لم أعرفه منذ زمن.

خالتي كانت سعيدة، لمحتُ في عينيها حلمًا قديمًا يتجدّد، كأنها فتاةٌ تنتظرُ موعدها الأول.

أما أنا، فراقبتُ كل هذا.

وابتلعتُ دمعةً علقت في حلقي منذ أعوام.

حتى الماضي الجميل... حتى هو، رغم صمته وحَذَره.

كان طفلًا حائرًا يبحث عن طريقٍ يحتمي به، دون أن يعترف بذلك.

لكني يا مالك، جلستُ بينهم ولم أكن منهم...

ورأيتك، رغم أنك لم تكن هناك.

توقفت يدها عن الكتابة حين سمعت صوته، حزينًا، يأتي من عند باب شرفتها... صوت يشبه الذاكرة أكثر من الواقع.

- كنتُ معكم يا تالا... أقسم أنني كنت، كنتُ أنظر إليكِ من حيث لا ترين، أحصيتُ كل من اقترب منك، حتى الصغيرة... حين ضحكت وأمالت رأسها على كتفك، تمنيتُ لو كنتُ مكانها.

همست تالا وهي تنظر إلى القلم وكأنها تخاطبه:

- لماذا لم تظهر حتى الآن؟ ولماذا لم أرَ وجهك؟ لطالما تمنيت وجودك بجانبي.

رد الصوت بخفوت وهو يقترب منها:

- لأنني أخشى أن تريني، يا تالا... قد تكتشفين أنني لا أشبهه، أملك عينيه، لكني لا أملك خطواته، ولا ضعفه، ولا قسوته، أنا خُلقت فقط لك، كي تكوني بخير.
- وهل كنتُ بخير وأنتَ بعيدٌ عني؟

صرخ في وجهها:

- أنتِ لم تخلُقيني إلا لتسكّتي وجعك بي! أنا ما أنا إلا مسكن لآلامك، فماذا تريدين مني أكثر من ذلك؟
- أنت لم تفعل شيئًا سوى محاربة ما أكتبه، حتى إنك لم تحمني حين أخطأت في حب كريم، في كل مرة تختفي فيها، تنكسر الروح مرتين.

خيّم الصمت على الغرفة، ثم همس وكأنه يقف خلفها تمامًا:

- ربما لأنني كنتُ أنكسر قبل أن انكسارك أنت.

اقترب الصوت وكأنه يقف جوارها، ثم أكمل:

- أنتِ لا ترين سوى ألمك يا تالا.

مد يده نحو الدفتر، أخذ القلم دون أن تراه، وكتب:

أنا ظل تالا، وظلك لا يتقدمك، ولا يسير بجانبك، بل يتبعك.

أنا صدى الحرف حين تهمسين.

ورجفة الورق حين تبكين.

أنا من صياغتك ومن وجعك.

لكنني أخشى أن تتحقق أمنيتك بأن أكون حقيقياً.

ومع أن تلك أمنيتي أيضاً، فإن خوفي أعظم.

فربما لن تحبيني كما أنا الآن.

هل ستظلين على عهد هذا الحب؟

فكل رد فعل منك يجرح قلبي، ويُحولُه إلى أشلاء.

تجمّدَت تالا في مكانها أول مرة، وانسكبت قطرات ماء على الورق، كأنه يبكي.

لقد جرحته هذه المرة، وربما لم يغفر، فسطوره ما زالت تنزف كأنها كتبت بروح رجل لم يولد بعد في عالمها.

لكنها وحدها تشعر به أكثر من أي أحد.

انتهت الصفحة، وبقي في الغرفة ظلال كلمات لم تُقل، ورائحة قهوة باردة قديمة، وقلب خائف من أن يحب شخصًا لا يستطيع أن يراه.

الفصل الثالث

كنت أظن أنني مجرد ظل، لكن الظلال أيضًا تشتعل إذا اقتربت من شمس أحبتها.

لا يكفي أن تتهربي من ماضيك، لأنني ماضيك وحاضرك وما بعد الحبر.

وإذا عدت بوجهه الحقيقي، فاعلمي أنني لم أعد وهمًا، بل صرت ألمًا له ملامح.

فإما أن تختاري الحقيقة التي جرحتك، وإما أن تختاري الظل الذي نزف معك في الخفاء.

رياح نوفمبر تعبر النافذة وتعبث بأغراضها، كأنها تبحث عن مأوى.

نظرت إلى دفترها الممدّد أمامها كجسدٍ ميّت، لا تعرف كيف تُحييه.

أمس، أنهت الفصل الثاني من روايتها "انتقام بين السطور".

خرجت من هذا الفصل منهكة؛ فالكلمات لم تعد كافية، والقلم لم يعد مطيعًا.

طوال الأسبوعين الماضيين، كانت تهمس للفراغ، تنادي على مالك بين السطور، تتوسله أن يخرج، أن يمدّ لها يده، كمن يحاول إثبات أنها ليست وحدها في هذه العزلة التي تلفّها من كل الجهات.

تذكرته... وانسابت دمعتها.

لقد كانت تحدّثه أكثر مما تحدّث عائلتها، تراقب خطواته في الليل، ثم تُقنع نفسها بأنه يسمعها، يشعر بها، وربما... يحبها.

مالك، لا تخذلني.

كتبتها على الهامش، ثم مزّقت الورقة، الرجاء لم يعد يليق بها.

فهي لم تَعُد تلك الكاتبة الخائفة من صقيع الوحدة.

الغياب صنع منها امرأة تكتب لتحرق، لا لتشفى.

تنهدت، أمسكت القلم... وبدأت تكتب.

الفصل الثالث

"الظل الذي تأخر"

هل كنتَ يومًا جُرحًا نقيًّا؟

هل يمكن للوجع أن يبدو جميلًا حين يأتي منك؟

لم أفهم كيف لقلبٍ أن يتعلّق بشيء لا يُمسّ، لا يُقبَض عليه، لا يُصنَّف؟

كنتَ هنا... بين الكلمات.

ثم صِرتَ الكلمة.

وها أنا الآن أكتبك.

لا لأنني أحبك، بل لأنني لا أعرف أن أعيش دونك.

أشتاق إليك شوقًا خجولًا، كأنني لا أملك حق الاشتياق.

أفتقدك بصمت، لأن صوتي يخونني كلما حاولت مناداتك.

كلما ظننتُ أنني شفيتُ.

جرحتني الذاكرة بابتسامتك.

برائحتك.

بنُسختك التي لم أحتفظ بها إلا على الورق.

أحياناً أتمنى لو كنتَ قاسياً معي منذ البداية.

لو صفعتني بالكلمات.

أو طردتني من عالمك.

أو تجاهلتني كما يفعل الغرباء.

لكنك، مثله، بقيت في المنتصف.

تُغرّي قلبي بالبقاء.

وتخذله في كل مرة.

أكتبك الآن.

قبل أن يكتب الخريف وصيته الأخيرة، قبل حلول الشتاء.

أكتبك خوفًا من أن أنساك، وأملًا في أن تنساني.

وضعت القلم جانبًا، كأنه أثقل من أن يُحمل، ثم نظرت إلى الورق، تقرأ ما كتبته... ودون أن تنتبه، شعرت بأن درجة الحرارة تغيّرت.

لقد تغيّر الجو وصار دافئًا، دافئًا على نحوٍ غريب، كأن أحدًا اقترب منها.

أغمضت عينيها، لا لترتاح، بل لتُقاوم الفكرة التي تسلّلت إلى عقلها...

هل أتى؟

مرت لحظة صمت ثقيل، ثم شعرت بظلٍ خافتٍ يلامس طرف الورقة.

همسٌ وصل إلى أذنيها:

- أنتِ من طلبتني يا تالا، فلا ترفضي حضوري الآن.

فتحت عينيها بسرعة، نظرت حولها...

لا أحد.

لكن الورقة التي كتبتها، المبلّلة بالألم، لم تكن كما تركتها... أصبحت الكلمات أكثر ترتيبًا، كأن أحدهم أعاد كتابتها بخطٍ آخر...

نظرت إلى المرآة خلفها، فرأت شيئًا لم تتوقّعه...

انعكاسها... لم يكن وحده.

خلفها، يقف ظل رجل.

استدارت تالة ببطء، وقلبها يخفق كأنها أمام حُلم مستحيل.

الظل الذي رأته في المرآة... أصبح رجلًا كاملاً، وقف أمامها وصمت.

عيناه مثل الغسق... فيهما عمق لا يشبه الخيال.

وجهه... وجه كريم.

شهقت بصوتٍ مخنوق، وضعت يدها على فمها المرتجف، وهمست كمن رأى ميتًا يعود إلى الحياة:

- كريم؟

في هذه اللحظة التي تجسّد فيها الحُلم، تحطّم كل شيء بسبب غبائها.

لقد خرج من عالم الورق ليصير حقيقيًا كرمى لها، لكنها أضاعته من يدها...

في لحظةٍ لم تحسب لها حسابًا.

سقطت نظرات مالك إلى الأرض، وكأنها رمَته من أعلى بناءٍ شاهق.

ظلّ مطرقًا رأسه، ثم رفعه ببطء.

عيناه تشبهان الشتاء بعد الخذلان... باردتين، دامعتين، وغاضبتين.

قال بصوتٍ خافت، لكنّه كالسيف:

- أحقاً!! كل هذا؟ كل الدعاء، والانتظار، والبكاء، والرجاء... ثم حين جئتك، تنادينني باسمه؟

اقترب خطوة، فارتجفت. تابع بقهر:

- أنا من كتبتِه ليالٍ كاملة، أنا من تشبّثتِ به بين السطور، أنا من صرختِ باسمه ألف مرّة بداخلك... ثم تنادينني باسمه؟ كأنكِ تُذكّريني... بأنني، مهما تقدّمتُ بخطواتٍ إليكِ، أظلُّ ظلًّا تابعًا له، وكأنني لا شيء.

ردّت بخفوتٍ مرتبك:

- أنا آسفة... ظننتك إياه.

قاطعها بصوتٍ منكسر، لكنه حادّ:

- لا تظنّي! انظري إليّ جيدًا... أنا لستُ كريم، كريم خذلك... لكنني أنا... لقد جئتُ.... كريم صمت، أما أنا... فقد انفجرتُ بسببك، حتى في نوبات جنونك، كريم تركَكِ تكتبين وحدكِ، أما أنا... فخرجتُ من نصكِ لأحمل عنكِ ألمكِ، فأين مكاني؟

قالت، والدموع تنهمر على خدّيها:

- أرجوك... لا تغضب، لم أقصد، لم أعلم أنك... حقيقي.

ضحك ضحكة مريرة، وقال:

- حقيقي؟ وهل تكتبين ما هو غير حقيقي؟ أم كنتُ وهمًا ممتعًا... حتى اللحظة التي صار فيها للوهم جسد؟

اقترب منها أكثر، صوته منخفض لكنه يطعن:

- أخبريني... هل أحببتِني حقًا؟ أم أحببتِ انعكاس كريم في وجهي؟ هل أنا رجلٌ في نظرك... أم مجرد مرآةٍ له؟

تقدّمت نحوه بخطوتين، ويدها تمسح دموعها السخية، وقالت بصوتٍ مخنوق:

- لا تتركني... حتى لو أخطأت، سامحني، أنت من طلبت أن أكتب، وأنا من طلبتك لتجيء... فلماذا جئت الآن... لتكسرني؟

أشاح وجهه عنها، ثم تنهد بألم، وقال:

- أنا لم أكسرك يا تالا... أنتِ كسرتني حين ناديتني باسمه.

نظر إلى عينيها، ثم صرخ في وجهها:

- مالك! أنا مالك الذي خرج من الحبر في سبيلك، لكنكِ كنتِ غبيّة بما يكفي... لترَي كريماً فحسب!"

ثم استدار...خطواته كانت مُثقلة بالحزن، ترك وراءه صمتًا يشبه الشتاء، حين يُشَيِّع آخر ورقةٍ سقطت من شجرةٍ وحيدة.

ترك تالة تبكيه وحدها... ورحل من دون أن يكتب شيئًا في الدفتر.

وهذه... أول مرة يمضي فيها بخيبة، ويخلّف وراءه خيبة.

❁ ❁ ❁

أما عن سمر، فاليوم هو أول يوم لها في التدريب.

كانت قد تعرّفت، منذ أسبوع فقط إلى المنتج فادي، الذي أشعرها أنها ملكة الغناء، ووعدها بأنها ستقتحم العالم العربي بصوتها.

سُرّت بذلك كثيرًا، ووَأدت مشاعر الخوف من التقدّم.

وها هي الآن، تقف إلى جانب فادي، تتدرّب معه تدريباً أفضل، فهي مع مرور الأعوام، نسيت كيف تخطو نحو المسرح.

عادت بذاكرتها إلى تلك السنوات، حين كانت تقف على المسرح وتغني، وكان من أحبّته قبل أن يصير زوجها، يقف خلفها... يدعمها بصمت، ويُؤمن بصوتها أكثر مما تؤمن به.

لم ينتبه كريم إلى غياب والدته المتكرر عن البيت بسبب عمله، فهو منشغل بإدارة مكتبته الصغيرة لبيع الكتب والقرطاسية، ويعود إلى البيت من دون أن يعرف ما يفعل أهله.

❁ ❁ ❁

حلّ الصباح بهدوئه الباهت، لكن قلبها عاصفة لا تهدأ.

جلست على طرف سريرها، تتنفّس بصعوبة، وقد غمرتها دموع لا تدري لأي قلبٍ تنسكب.

دموعٌ تسلّلت من عمق الجُرح الذي تركه مالك في نفسها.

جلست أمام دفترها، وقلّبت الصفحات البيضاء بملل، كأنما تبحث عن نصّ ينقذها من غيوم الحزن... توقّفت عيناها عند كلماتٍ... ليست لها.

مالك كتب بدلًا عنها.

تجمّدت يدُها فوق الدفتر، وتوقّف الزمن من حولها... كأنّ الزمن تجمّد.

في هذا الظلام الذي صنعته بيديها.

أسيرُ وحيدًا بين أطياف الكلمات الممزّقة.

أبحث عن نورٍ في فوضى الألم.

عن صدى لحرفٍ لم يُسمع بعد.

أنا الذي خرج من الحبر ليعيش.

أحقًا لم أكن سوى غبار في مرآتها؟

أليس لي الحق...

أن أُدعى باسمٍ يحمل معنى؟

أن أكون أكثر من ظلٍّ هامس في زوايا دفترها؟

لكنها، بقسوتها، مزّقتني بلا رحمة.

وتركتني بين ثنايا الورق مكسورًا، مهمَّشًا.

تلوكني أوجاعُها من دون اكتراث.

أفهذا ما تريده؟

أن نحارب، لكن نبقى وحدنا... بين سطورٍ لا تنتهي؟

قرأتها بعينيها المتورّمتين، ولم تستطع إلا أن تشعر بالغضب.

مزّقت الورقة بعنف، ثم همست بتحدٍّ:

- أتريدها حربًا بيني وبينك يا مالك؟ لن أسمح لك بالعبث بكلماتي بعد اليوم، سأكتب... وحدي.

كنتُ أظنك فارسًا يحميني.

لكنك كنتَ الوحش الذي يسكنني.

خطواتك دوّنتها على صفحات حلمي.

ثم سحقتَ أحلامي تحت وطأة كلماتك.

أنا التي صنعتك، وأنا التي ترفض أن تُصنع منها أسيرةٌ لأوهامك.

لا أريد أن أكون ظلًّا في قصتك.

ولا أن أفقد نفسي في فصولٍ لا تنتهي.

أنت لستَ إياه، ولا تملك الحق في أن تحمل اسمه!

أنا وحدي صاحبة القلم.

وصاحبة الحبر.

وإن كان لا بدّ من حرب...

فلتكن!

لكنني لن أسمح أن أضيع نفسي فيك.

سأكتب.

سأكسر.

وسأعود... لأكون أنا.

فجأة...

توقّف الهواء في الغرفة.

وصوتٌ مألوف اخترق الصمت:

- إذا استمررنا في تمزيق الورق هكذا، فلن يكتب أحدٌ منا أبدًا.

نظرت إليه بنظراتٍ غاضبة، لكنها مكسورة.

اقترب منها وقال بهدوء:

- أحسنتِ يا تالة، كنتِ ضعيفة إلى حد سمحتِ لي بدخول روايتك، وتبديل كلماتك إلى ما يُناسبني، كنتِ حينها لا تجيدين إلا البكاء.

ثم صفق بكلتي يديه ببطء، وقال...

- وحين قررتِ التمرد، تمردتِ على من ساعدكِ على الوقوف.

نظر إليها، وصوته هادئ لكن مثقل:

- هذه القوّة التي تتحدّينني بها... أنا مَن منحكِ إياها، كنتِ هشّة، سهلة التمزيق كهذا الورق.

وضع يده على كتفها بلطف، وأكمل بصوت خافت:

- أنا لا أريد أن أكون عدوًّا لكِ، ولا أن أخطف منكِ كلماتك، لكن لا أعرف لماذا تصرّين على رفضي، وكأن وجودي في نصكِ... خطيئة لا تستحقينها.

صمتَ الاثنان، كلماته تضغط على قلبها كحجرٍ ثقيل.

كيف لها أن تشرح له...أنه بهذه الصورة، لا ترى أمامها إلا كريم؟

كيف ستشاركه غرامه، وهي لا تزال ترى وجهًا لا ينتمي إليه؟

تركها، وفتح صفحةً جديدة من دفترها، وبدأ يكتب.

كانت حروفه ترتجف، كأنها تؤنّبه وهو يرسم الكلمات.

وبعد أن انتهى، ظلّ يتأمل الدفتر طويلاً...

ثم صدح صوته في الغرفة.

- هل تظنين أن هذا سهلٌ علي؟ هل تعرفين شدّة ألمه... أن أخرج من داخلك، لأجد نفسي هنا... مكروهًا منبوذاً؟ كأنني مجرد ظل... لا يستحق شيئاً حتى اسمه؟ انظري إليّ، تالة! أنا لستُ كريماً! أنا... أنا... خرجتُ من وجعك، من كلماتك، من نزيفك.

أمسك كتفيها... وهزّها بعنف:

- أعيدي صياغة الرواية مجددًا، وبدّلي وجهي...فلعلّكِ تُحبين ملامحي الجديدة، لكن لا تتركيني أكمل حياتي باحثاً عن حبكِ، وأنتِ تفرّين مني.

انكسر صوته في النهاية، ولم تستطع تالة منع دموعها من السقوط.

في تلك اللحظة، لم تكن الكلمات مجرّد حبرٍ على ورق، بل صراع بين وَجهين يتألمان في عتمة السطور.

اختفى...

وخلّف وراءه خيطًا من الحبر الأسود.

أمسكت القلم، وجلست خلف الطاولة، وكتبت:

"رحل... تاركًا خلفه فراغًا أكبر من أي كلمة قيلت.

وتركَني وحدي.

مع دموعي... وأوراقي الممزّقة.

لم أكن مستعدة لهذه اللحظة.

ونسيتُ... أنه يُشبهه إلى الحد الذي ناديتُه فيه باسم غريمه.

لقد كان مجيئه صدمة لي.

أما له... فكان موعدًا مُجهزًا في عتمة الظلال.

❁ ❁ ❁

أغلق كريم باب مكتبته باكرًا تلك الليلة، بسبب صداعٍ باغته دون استئذان، فقرّر العودة مبكرًا إلى بيته... إلى زوجته، إلى طفلته، إلى راحته.

إلى تلك "الراحة" التي كانت، في زمنٍ مضى، تُسمّى عنده وهمًا...

ويسمّيها الآن حياة.

لكن حين وصل كريم إلى منزل عائلة شهد وطرق الباب، لم تفتح له كما اعتادت، بل كانت الطفلة الصغيرة في استقباله.

دخل وسألها عن جدّيها، فأجابته ببراءة:

- ذهبا لزيارة قريبٍ لنا.

كانت ألعابها مكدّسة في زاوية الغرفة، فركضت نحوها لتتابع اللعب، بينما جلس على الأريكة، يتأمل هدوء المكان، ثم، وقد انتبه إلى الصمت الثقيل الذي يخيّم على البيت، سألها بهدوء:

- وأين أمكِ؟

لم تنظر إليه، واكتفت بإتمام لعبها، ثم أجابت بهدوء:

- ليست هنا... لقد ذهبت إلى بيت عمّها.

ارتبك كريم لحظةً، إذ يعلم جيدًا أن عمّها سافر منذ مدة، مع زوجته خارج البلاد.

ولا أحد في ذلك البيت... سوى هاني.

سألها مجددًا، وقد بدأ صوته يفقد تماسكه:

- ولِمَ ذهبت إلى هناك؟

هزّت الصغيرة كتفيها، في إشارة إلى أنها لا تعرف، ثم أكملت، وهي تنظر إليه ببراءة عفوية:

- إنها تذهب إلى هناك كلّ يوم.

جفّ حلقه، وردّد ببطء، كمن يتلقى طعنة:

- كلّ يوم؟

لكنها لم تُجبه... بل عادت إلى لعبها، وكأن شيئًا لم يكن.

أخذ صغيرته، واتجه بها نحو بيت عمّ زوجته.

أيعقل أن هاني يخدعه مرة أخرى؟

هاني... صديقه، أخوه، ونديمه في ليالي الضياع، والتشتّت، والحيرة.

طرق الباب عدّة مرات، ثم انحنى إلى طفلته وقال بلطفٍ خافت:

- انتظريني هنا، لا تتحركي من مكانك.

وأخيرًا...

فُتح الباب.

تجمّدت الدماء في عروقه.

إنها هنا.

في بيته.

في حضن الخيانة.

وفي قلب الخيبة.

شهقت.

تجمّدت.

تراجعت بخوفٍ مذعور، كأنها رأت شبحًا خرج من زمنٍ قديم.

لكن الوقت... قد طعن كل شيء.

أما كريم، فلم يتكلّم، ولم يصرخ، حتى إنه لم يشتم.

وقف فحسب... كتمثالٍ من حجر.

لكن عينيه... قالتا كلّ ما لا يُقال.

ثم أخيرًا، انفجر صوته كأنما لم يعد يحتمل:

- أنتِ؟! أنتِ من خذلتني؟! لماذا؟! لِمَ رميتِ العهد من النافذة؟! ألم تكوني البارحة بين ذراعيَّ؟ وكنتِ قبل ذلك أمًا لابنتي؟!"

ارتجفت يده، واشتعلت عروقه كأن النار تسري فيه:

- ظننتُكِ ملجئي، ظننتكِ راحتي، لكنّني نسيتُ... أن بعض الظنّ خيبة، وخيبتي بكِ... قاتلة!"

دار حول نفسه كمن يبحث عن نفسه في العدم، ثم حدّق في عينيها...

عيناه كانتا تغليان بقهرٍ لا يُوصف.

قالها بصوتٍ مزلزل، مكسور، مُذلّ للطرفين:

- أنتِ طالق.

صرخت شهد، وخبأت وجهها بين يديها، كأنها تستطيع أن تختبئ من الحقيقة...لكن الحقيقة نطقت بكل شيء.

أما كريم، فكان قلبه يتأرجح بين الذهول والغضب، بين خيانةٍ تتدلّى الآن من عيني زوجته، وخيبةٍ تسكن صدره من رجلٍ كان يومًا أقرب إليه من نفسه.

نظر إلى هاني بصمتٍ مميت، كأن الطعنات كلها اجتمعت في نظرة.

ثم قال بصوتٍ مقهور، لا يخلو من القهر:

- كنتُ أعدّك أخي... حسبتك سندي.

استدار، ليخرج ويترك وراءه كل شيء...

لكن صوت هاني الهادئ أوقفه، كأنّ ما سيفعله ليس اعترافًا، بل جريمة محسوبة:

- أتدري لماذا فعلتُ ما فعلت؟

توقّف كريم أمام عتبة الباب، من دون أن يلتفت، بينما أجاب هاني على سؤاله ببرودٍ غلّفه الرماد، رماد سنواتٍ احترقت بصمت:

- لأنني... أكرهك.

استدار كريم نحوه ببطء، وعيناه تشتعلان من صدمة الحقد... الحقد الذي عاش في صدرٍ كان يُسمّى صديقًا.

أكمل هاني، بنبرة خالية تمامًا من الندم، كأنه يحرق كل جسر بينهما عن عمد:

- نعم... أكرهك يا كريم، لطالما كرهتك، كرهتُ نظرة الاحترام في عيون الآخرين كلما ذُكرت، كرهت نقاءك، نجاحك، كرهتك... لأنك كنت كل ما لم أكنه، كنتَ كالنجم... مشعًا، لامعًا، تحبّك النساء، ويثق بك الرجال، حتى تالا... كانت تراك ولا ترى أحدًا سواك.

اقترب هاني منه خطوة، ونبرة صوته تحمل كل الحقد المتراكم في قلبٍ لم يُشفَ يومًا:

- سرقتُ حبّها منك... وإن لم يكن حقيقيًا، ولو لم تمنحني قلبها يومًا... أردتُ فقط... هزيمتك، الانتصار عليك.

ظلّ كريم صامتًا، مُحطَّمًا، مخذولًا من رفيقٍ كان يسير بجانبه كظلٍّ مطمئن... فإذا به خنجر في الخاصرة.

أما هاني، فواصل حديثه... وهو يذبحه ببطء، كأن كل كلمة تُنزع من قلبه لا لتُقال، بل لتُطعَن:

- وحين عدتَ من غربتك... رأيتُك تعيش، تبتسم، تحتضن ابنتك، وتحدّثني عن تالا، كأنها نَفَسك... كأنها وطنك، عندها قرّرتُ أن أدمّرك.

قررتُ انتزاع زوجتك منك، لا لأنني أحببتها، بل لأنك سعيد معها، وأنا... لا أطيق رؤيتك سعيدًا.

ثم أدار وجهه نحو شهد، وأشار إليها باستخفاف قاتل، كأنها أصبحت لا شيء:

- أما هذه... فأنا لم أُطقها يومًا، كانت وسيلة فقط... وقد وصلتُ إلى هدفي، رأيتُ القهر في عينيك، يا كريم، ولهذا... لم أعد في حاجة إليها.

تنفّس كريم بعمق، ثم قال بصوتٍ ممزق:

- كنتَ تحاربني... وتعيش في وهمك الكبير، لكن لا يهمّني حقدك، ولا طعنتك، ما آلمني، يا صاحبي... هو أنني خسرتُ الغالي في سبيل الرخيص.
وأنت... ربحتَ الرخيص، وخسرتَ نفسك.

غادر من دون أن يلتفت إلى خلفه، ممسكاً بيده اليمنى طفلته، وبيده اليسرى صمته الحزين.

أوصل صغيرته إلى البيت، قبّل جبهتها بصمت، ثم خرج وحده... يمشي في شوارع دمشق العتيقة، يتسكّع بين الوجوه الحائرة، والأرواح المتألمة، كأن المدينة كلها تبكي معه من دون أن تسأله لماذا.

جلس على رصيفٍ بارد، كأنّ الأرض كلها لفظته، ووضع رأسه بين كفّيه، وانهار... لا بسبب شهد، بل بسبب تالا، بسبب الحُلم الذي خسره، والخيبة التي تلقّاها اليوم... من أقرب الناس إليه.

وبكى...

بكى كما لم يبكِ من قبل.

بكى كما يبكي الرجال حين يكبرون فجأة، ويرون أن الحياة أقسى بكثيرٍ مما تخيّلوا.

بكى تالا.

بكى وجعه.

بكى سنواتٍ قضاها في مطاردة السراب، وفي تصديق الأكاذيب.

تذكّر حين خذل تالا... بصمته.

حين لم ينطق، ولم يعترف، ولم يدافع عن حبٍّ وُلِد في صمت، ومات في قسوة.

ظنّ الزواج من شهد ينسيه إياها... لكنّه ما كان يعلم أنه بهذه الزيجة سلّم قلبه بيده لمن لا قلب لها.

عاد إلى البيت أخيرًا، فوجد الصمت في استقباله... صمتاً يعرف كل ما جرى.

دلف إلى غرفته، فوجد الصغيرة تتوسّد الفراش، كأنّها الضوء الوحيد الباقي من روحه.

اقترب منها، قبّل جبينها بحنان، وهمس بصوتٍ مكسور:

- سامحيني يا صغيرتي... على اختياري الخطأ لأمك.

جلس جوارها، أسند رأسه إلى الجدار، وتناثر صوته في داخله كأنين لا يُسمع:

أيّ جريمة ارتكبتُها لأُعاقَب هكذا؟

أيّ خطأ جعلني أفقد من أحب، وأثق بمن لا يستحق؟

لماذا عليّ أن أدفع أثمانًا فادحة... في سبيل حلمٍ صغير؟

تالا... سامحيني.

لقد اخترتُ ظلاً... وركضتُ خلفه.

وها أنا الآن...

بلا ظلّ...

ولا ضوء.

أغمض عينيه، فانسكبت دمعة دافئة على خدّيه الباردين.

كان يشعر باختناق داخلي، كأنّ صدره تحوّل إلى صندوق ضيّق، امتلأ بالعزلة، بالخذلان، بالأسى على حاله.

هو الذي كان قويًّا...

ساكنًا...

يقود العائلة كربّان لا يهاب عصف الأمواج، ولا ارتجاف العواصف.

والآن...

ها هو يغرق بصمت، يفتتّه الحزن، ما بين خسارته لنفسه... وضياعه بين امرأتين.

إحداهما كانت وهماً، والأخرى... كانت الحقيقة التي لم يعرف كيف يتمسك بها.

مدّ يده المرتجفة، وربّت على شعر طفلته بلطفٍ خائف.

لكن في داخله...صوتٌ يصرخ:

"أخشى أن أُولَد فيكِ جرحًا، كما انفتح في قلبي، كلما تذكّرتُ أنكِ... ابنتُها."

تمنّى لو تحتضنه تالا الآن، لو تفتح له ذراعيها، ليهرب من كل هذا الخراب...

ويعود طفلًا لا يفهم معنى الخيانة، طفلًا لا يعرف من هاني، ولا من شهد، ولا يرى في تالا سوى أمانٍ نقيّ، لا ماضي له، ولا جروح.

لكنّه رجل...

والرجال لا يبكون كما الأطفال.

الرجال يبكون بصمتٍ قاسٍ، تمامًا كما يفعل الآن.

۞ ۞ ۞

في الصباح الباكر، حين جلس الأربعة حول مائدة الإفطار، سألته والدته عن زوجته، وقد بدا الاستغراب واضحًا في صوتها... فهذه المرة الأولى التي تغيب فيها عن الإفطار.

أجابها باقتضاب، ونظره معلّق بطفلته التي تجاور تالا:

- طلقتُها... البارحة.

خيّم صمتٌ مسكون بالصدمة على الاثنتين.

أما هو... فقد ثبّت نظره على تالا، وتلاقت عيناهما في لحظةٍ محمّلة بكل ما لم يُقال.

كان يرسل إليها نظرات ندمٍ خافت، كأنّه يعتذر عن ما كان.

أما هي، فأعادته عيناها إلى متاهة الغموض...

نظرات لا يمكن فكّ شيفرتها، ولا فهم مقصدها.

حينها سألته أمه بنبرة متلعثمة:

- لماذا يا بني؟ كنتما خيرَ حبيبين... ولم أسمع يومًا أن بينكما خلافًا.

نظر إلى طفلته، ثم إلى والدته... والتزم الصمت.

فهمت والدته الرسالة، إنه لا يرغب في الحديث أمام الصغيرة.

لكن الفضول في طبع الأمهات ليس بغريب، ولذلك، بعد الإفطار، طلبت سمر من حفيدتها أن تذهب لتلعب في غرفة والديها.

جلست مع ابنها في الصالة، وأعدّت تالا الشاي كما طلبت خالتها، ثم جلست إلى جانبهما، تسمع... وتصغي.

أخذ كريم كأس الشاي من يد تالا، ووضعه بهدوء أمامه، ثم قال

- شهد... خانتني.

قالها كريم بصوت خافت، وهو يشيح بنظره عن الجميع.

ساد صمت ثقيل، وسكت هو أيضًا، لئلا ترى تالا ضعفه، لئلا يرى في عينيها شفقةً لا يريدها.

حاول أن يبدو متماسكًا، لكن نبرته المرتبكة فضحت انكساره.

- رأيتها بعيني...

مع هاني...

في بيته...

في وضعٍ لا يُحتمل.

تلعثم في الحروف، كأن الكلمات تتدافع خارجةً من جرحٍ لم يُلتئم بعد.

توقف لحظة، كمن يبتلع غصّة، ثم تابع:

- لم تعلم أنني سأعود باكرًا... وأنا الآن، أشكر صداع الرأس الذي أعادني إلى البيت فجأة... أعادني إليهما.

تنهد بمرارة، ثم تابع بصوت خافت:

- أراني القدر ما لم أكن مستعدًا لرؤيته.

شهقت والدته، وضعت يدها على فمها، بينما اتّسعت عينا تالا وجعًا على حاله.

أكمل بصوت مختنق بالألم:

- طلّقتها فورًا، وحاولت ألا أنهار أمامها، أخذت طفلتي، وغادرت... سرت في شوارع دمشق، كأنني بلا جسد...

نظر إلى تالا الصامتة، وقال بصوت خافت يشوبه الذهول:

- قال لي... إنه سرقها، كما سرقك مني.

فتحت تالا فمها بدهشة، لم تفهم ما يعنيه، فهاني بالكاد كانت تراه، ولا يربطهما أي حديث أو موقف مشترك.

- قال لي... إنه لا يحتمل أن يراني سعيدًا، وإنه... يكرهني، يكره حتى رؤيتي أتنفّس.

انخفض صوته عند آخر كلمة، كأنما نُزع منه الهواء دفعة واحدة، ثم ساد صمتٌ... صمتٌ أثقل من أن يُحتمل، كأنّه وُضع على قلوبهم جميعًا دفعة واحدة.

نهضت تالا بهدوء، وانسحبت إلى غرفتها من دون أن تنبس بكلمة.

أغلقت الباب خلفها، محاولةً تهدئة ضربات قلبها.

لم تستطع أن تراه هكذا، محاطًا بالخيبة، تمنت أن تحتضنه... لكنها لم تفعل.

أما هو، فركع أمام والدته كطفل صغير، ودفن رأسه في حجرها.

والآن فحسب سمح لنفسه بالانهيار.

بكى بكاءً موجعًا، يشبه سقوط العمر في لحظة واحدة.

كان صدره يعلو ويهبط بعنف، فيما مسحت والدته على شعره ببطء، وهي تجفف دموعها كرمى له.

ثم همست...

- أنا معك، بنيّ، لم ينتهِ كل شيء، ما زال النور يسكن قلبك، وإن خذلك العالم كله.

لم يرد عليها، كان غارقًا في حزنه، في خيبته، في وجعه.

ارتجف بين يدي والدته كغصن اقتُلع من جذوره، ولا يدري في أي أرض سيسقط.

❁ ❁ ❁

أما تالا فقد جلست أمام طاولتها، فتحت دفترها، وأمسكت قلمها، وكتبت بهدوء:

أوّل مرة ينهار أمامي...

لطالما عرفته رجلاً صلبًا، صامتًا، كأنّ الوجع لا يعرف طريقه إليه.

لكن اليوم، وعلى غير عادته، كان هشًّا، حزينًا، مقهورًا.

باح لي بما لم يبح به من قبل.

حدّثني عن خيانتها، وعن غدر صديقه.

أشفق على تلك الطفلة الصغيرة، التي أضحت ضحية ذنبٍ اقترفته القلوب الكبيرة.

أردتُ أن أقترب، أن أضع رأسي على كتفه، وأقول له:

"أنا هنا... أنا التي لم أخنك، ولم أُطفِئك."

لكنني لم أفعل.

ربما لأن مالكاً يملؤني الآن، أو لأنني صرتُ أرى كلّ شيء بعينيه.

ربما...

لأنني لا أريد العودة إلى الوراء، ولا أحتمل أن أعيش صدعًا آخر، بين وهمٍ وحقيقة.

لكنني حزنت...

حزنت عليه بصدق.

تمنيت لو أُخرجه من حزنه بضمة واحدة.

أن أجفّف دمعه بكفّي المرتجف، أن أقول له، وهو يرسل لي نظرات ندم...

لو كنتَ تحبّني يومًا، لَمَا تركتني أذوب في غيابك.

ليتني أستطيع نسيانك، كما نسيتني...

لكن صورته الآن، ودموعه، وكلماته المكسورة...

شعرتُ أنها وشمٌ وُسم في قلبي، وأخشى ألّا يزول، مهما طال الزمان.

خرج من بين الظلال كالعاصفة، اقترب منها بلا تمهيد، عيناه تقدحان شررًا، وصدره يعلو ويهبط، كأنّه يركض منذ دهور.

صاح بها بحدّة، فأجفلها:

- أهذا ما تبقّى منّا يا تالا؟ حبر تهدينه لذكرى رجل طعنكِ، واختار سواكِ؟!

رفعت رأسها نحوه مذعورة، وكأنها ضُبطت متلبّسة بالذنب، ثم همست:

- لم يكن ما كتبته حبًا... ربما كان وجعًا، على رجلٍ ضاع بسبب الخيانة.

ضحك بسخرية موجعة، وقال بنبرة ملأها الانكسار:

- ولهذا تكتبين بشوق؟ عن صمته، عن دموعه، عن حنينه إليكِ؟ أنتِ من وعدتني أن الماضي قد انتهى.

أجابته بصوت مرتبك مكسور:

- أنت تعرف أنني اخترتك... كتبتك من وجعي، من خيبتي، وقلت كل ما أردت... لكن كريماً جزء من ذاكرتي، لن يموت بسهولة.

اقترب منها خطوة، ووجهه كغيمٍ مكفهرّ، وقال بصوتٍ يفيض مرارة:

- أنتِ لا تعرفين ما تريدين... بالأمس كنتِ تتوسّلين إليّ أن أكون حقيقيًا، واليوم قلبك يَحنّ لمن حطّمك؟! كيف أثق بكِ بعد الآن؟ كيف أصدّق أنني لستُ ظلًّا جديدًا لرجلٍ قديم؟

ارتعشت شفتاها، وتمتمت بانكسار:

- لستَ ظلًّا... أقسم أنك الحقيقة الوحيدة التي منحتني إياها الحياة.

صرخ بألم:

- لكنني صرتُ أخاف! نعم، أخاف أن يعود هو، بعد أن أخسر كلَّ شيء... أن يعود إليك، أن تفتحي له باب الحنين، أخاف أن أراكِ بين ذراعيه، كما تخيّلتِ نفسكِ اليوم.

انفجرت دموعها، وصاحت بصوتٍ متكسّر:

- لستُ له... ولن أكون! لكن لا أستطيع نفي إحساسي بالوجع حين رأيته مكسورًا، أليس من حقي أن أمتلك قلبًا يشعر؟ أليس من حقي أن أحزن، من دون أن يُحسَب حزني خيانة؟

أشاح وجهه قليلًا، ثم استند بيديه إلى طاولتها، وتمتم بصوتٍ منخفض مشوب بالمرارة:

- أنا من كتبتُكِ من دموعي، ومنحتُكِ الحياة... واليوم، تقابلين حياتي بحنينٍ إلى موتكِ القديم؟

صعقت تالا... كيف ذلك؟ وهي الكاتبة، وهو مجرد شخصية؟

لم تجادله في هذا، بل أمسكت كفّه برفق، وقالت بانكسار:

- لا تبتعد، أرجوك... أنا تائهة الآن، أبحث عن نفسي فيك، فلا ترحل... ولا تتركني وحدي في صمتي.

انتزع كفَّه من بين أصابعها المرتجفة، وقال بحزنٍ خافت:

- أخاف أن يكون هذا الصمت... هو كلّ ما تبقّى لنا.

ثم أمسك القلم، وكتب أمام عينيها، كان قريبًا منها إلى الحدّ الذي اختلطت فيه أنفاسها... بأنفاس الحبر.

قبل أن تسرعي في نشر كلماتك على هذه الصفحات.

تذكّري أن ما بيننا ليس لعبة حبر تُمحى بسهولة.

أنا هنا... لن أنسى، ولن أتنازل.

كل حرف أكتبه.

كل نبض أشعر به.

هو حقيقة لا تحتمل الخداع بأوهام الماضي.

امحي ما كتبته عن ذلك الرجل.

فهو لا يستحق أن يُذكر في صفحاتك... ولا في قلبك.

أنا مالك....

ولن أكون بديلاً لذكرى غائب.

لا تعودي وتخلطي بيننا، لأنك بهذا التداخل تذبحين قلبي بين سطورك.

رمى القلم على الدفتر، وأغلقه بحزم، وقال لها:

- إياك أن تمسحي ما كتبتُه، لا تجرحي ما بيننا بكلمات خطأ، فكل حرف تكتبينه هو وعد، وكل كلمة هي دمعة، ولن أسمح لدموعي أن تُذرف بسببك.

ثم اختفى كأنه لم يكن.

❁ ❁ ❁

خرجت تالا من غرفتها، تمشي بخطى مثقلة بثقل الكلمات التي تبادلتها مع مالك.

وجدت كريماً يجلس في ركن من الصالة، وجهه شاحب، وعيناه تائهتان في متاهات لا تنتهي.

تخطّته واتجهت إلى المطبخ لإعداد المزيد من القهوة، لكن قبل أن تبتعد، ناداها بصوته المبحوح:

- تالا...

التفتت إليه، فطلب منها أن تجلس، ليحدّثها قليلًا.

أومأت برأسها، وجلست مقابلِةً له، تنفّس بهدوء، ثم قال:

- طفلتي الصغيرة أمانة بين يديك يا تالا، أعلم أن الماضي لن يغفر لي، لكنني، رغم كل شيء، أعتذر.

سكت قليلاً، يتأمل براءة عينيها، ثم قال:

- أعتذر عن كل لحظةِ ألمٍ تحملتِها بسببي، عن كل وجع، عن كل سكوت في غير مكانه.

نظرت إليه تالا بعينين يغمرهما السؤال والريبة، ثم قالت بحذر:

- وماذا عن قولك إن هاني سرقني منك؟

انتظرت إجابته، فلم تلقها، فعادت وسألته:

- ماذا يعني هذا الكلام؟

تردد كريم قليلًا، تنهد بعمق، وحمل هاتفه ليعبث به، كأنه يبحث فيه عن جواب يليق بسؤالها.

ثم قال بصوت مخنوق:

- كان مجرد كلام... كلام خرج من فمي في نوبة غضب.

لم تصدقه، لأن مثل هذه الكلمات لا تُقال عبثًا...

بل هي صادقة حين يشتدّ الغضب.

ومع ذلك، ابتلعت دموعها، ونظرت إليه بصمت، كأنها تعيد ترتيب مشاعرها المشتبكة.

ترك في قلبها طريقًا ظنّ أنه انفتح، لكنه الآن...

صار أكثر هشاشة من أي وقتٍ مضى.

❁ ❁ ❁

مرّت الأيام ثقيلة، كأنها لا تعرف التوقف... لكن حياة الجميع توقفت في مكانها.

كلّهم يعيشون موجة من الألم، والحنين، والتردّد.

توقّفت تدريبات سمر، واختفت من صالة الغناء، واختبأت خلف جدران البيت.

تجلس مع كريم، تواسيه في صمت، تحاول أن تملأ فراغ قلبه.

كانت هي الملجأ، والصدر الذي آواه، واليد التي مسحت دموعه... من دون أن تنطق بكلمة.

أما كريم، فحاول الابتعاد عن كلتيهما، يبحث عن السلوى بعيدًا عن جدران البيت، بعيدًا عن "تالا" التي تُشعِل في قلبه نيرانًا لا تنطفئ.

يجلس في مكتبته، محاطًا بالكتب، يحاول أن ينسى... لكن الزمن يعيده إلى البداية.

مشاعره المختلطة، والجرح الذي تركه في قلب "تالا"، يقفان في داخله كسدٍّ منيع، يمنعانه من الاقتراب منها... ويمنعانه من البدء من جديد.

أما "تالا"، فغارقة في دوّامة من المشاعر المتذبذبة، تتأرجح بين عالمين...

فعندما ترى كريماً، يغمرها دفء الأيام الخوالي، ولحظات العشق والمودّة التي جمعتهما، ذكريات لا تزال عالقة عن ماضٍ لم يُمحَ بعد من قلبها.

لكن حين تعود إلى "مالك"، وتسمع صوته القاسي وهو يعاتبها على تردّدها وضعفها، تشعر بأن كل خطوة نحو الماضي خيانة للحبر الذي صنعه لها، فتسقط مرة أخرى في صراع لا يرحم.

بين من أحبّها أولاً... ومن أحبّها بعمق أكبر.

تشعر أن مالكاً هو الوحيد الذي يستحق أن تكون معه.

هو الذي انتزعها من رمادها.

هو الذي منحها حبرًا يُكتَب به العمر من جديد.

هو الذي يمتلك الحق في أن يُكمِل معها ما ضاع منها.

لكنها تقف على حبلٍ مشدود، بين حبٍ ماضٍ لم يُدفن، وواقعٍ حاضر لا يمنحها إلا الشك.

بين أملٍ بعيدٍ كالأفق، وواقعٍ مريرٍ كالموت البطيء.

كلّ خطوة تخطوها نحو أحدهما هي معركة بين القلب والعقل، وكلّ نظرة من عينيها تروي حكاية قلبٍ متعب... تائهٍ بين "كان" و"ربما" و"ليت".

في مساء باهت، جلست تالا قرب النافذة، تحدق في أضواء الشارع المنعكسة على زجاجها، بينما الموسيقى الخافتة تنبعث من هاتفها، توقظ في قلبها ذكريات قديمة جاهدت لنسيانها.

دخل مالك بهدوء، لم يقل شيئًا في البداية، واقتصر على الوقوف عند الباب. هذه أول مرة يأتي إليها قبل أن تكتبه، تأمل كتفيها المرتجفتين من البكاء المكتوم.

بعد لحظة طويلة، قال لها بصوت خفيض مشحون بالغضب:

- هل تبكين عليه؟

حينها انتبهت لوجوده، التفتت إليه، تأملته قليلاً ثم أشاحت وجهها نحو النافذة وقالت:

- لا أدري... ربما أبكي لأنني متعبة، وربما لأنني لا أحتمل كل هذا الصراع بداخلي.

اقترب منها حتى وصل إلى مسافة لم يعد تفصل بين أنفاسهما سوى همس، ثم نظر في عينيها وقال بصوت يحمل ثقل الألم:

- ما لا تفهمينه هو أنني من هنا... أنا من كتب معك كل حرف، وكل وجع. فلماذا تذرفين دموعك على رجل لم يخترك يوماً، وتركك عند أول محنة صادفها؟

قالت بصوت أعلى، يختلط فيه القهر والاحتراق:

- كريم لم يختر أن يتركني... إنها الظروف.

قاطعها بنبرة محمّلة بالمرارة:

- لا تسوّغي فعله، لا تدافعي عمّن باعك ثم عاد ليطرق بابك بعدما خُذل.

ابتعد قليلاً، وجلس على طرف سريرها، وهمس كأنه يخاطب نفسه:

- أأنا ظلّه؟ أم طوق نجاة في غيابه؟

وقفت، تقدمت إليه، وجلست بجواره بهدوء، ثم قالت بنبرة صادقة:

- أنت لست ِظله، أنت شيءٌ آخر... أنت الألم اللذيذ الذي لا أستطيع فصله عني، أرجوك، لا تؤذِني بكلماتك هذه.

صمت قليلاً، ثم أجاب بنبرة تحمل ثقل الوجع:

- كنت أراكِ ملاذي... كتبتك في قلبي كصفحة من الورق، وظننت أنني سأكون يومًا ما وطنك، لكنني وجدت نفسي خيبة جديدة في حياتك.

وضعت يدها على كتفه المرتجف، وقالت بتوسل:

- لا تبتعد، لا تتركني أضيع على مفترق طرق ثم تغيب، اعذرني، فأنا أبحث عن نفسي بينكما، وإن كنت تظن أنني أحب كريم، فأنت لا تعرف ما يحدث في داخلي حين تبتعد أنت.

أبعد يدها عن كتفه وقال بصوت ملؤه الخيبة:

- لا أريد بقايا شعور، ولا قلبًا مقسومًا بين ماضي ومستقبل، إن لم أكن أنا الحاضر الدائم، فلا تقتربي مني بعد الآن.

ثم وقف واقترب من الطاولة، فتح الدفتر وقال لها من دون أن ينظر إليها، قلّب الصفحات بهدوء متوتر:

- اكتبي عني ما شئتِ... اجعليني ظلاً، خيالًا، لعنة، أو حتى ذكرى تكرهينها... لكن لا تمحي حضوري من قلبك، كما مزّقتِ وجودي من دفترك.

ثم أخرج قلمه... ولم يستخدم قلمها هذه المرة، كأنّه يقول:

"هذه الكلمات لي وحدي، من روحي المتعبة لا من خيالك".

إلى تلك التي كتبتني... ثم أنكرتني.

كنت أظن الحبر حين يختلط بالدم لا يُمحى.

لكنّكِ أثبتِّ لي أن حتى يمكن أن يُمزّق ويُلقى في سلّة التجاهل.

لا بأس، يا عزيزتي.

سأرحل.

لا لأنني أحبك، بل لأنني أحببتك أكثر مما ينبغي...

أكثر مما تحتملين، وأكثر... مما أحتمل.

أخاف البقاء.

فأتحوّل إلى ظلٍّ تطاردينه في الأيام الحارّة، وتهربين منه في الليالي الباردة.

وإن عدتِ يومًا، فستجدينني هنا.

في السطور التي لم تمحِها يدك.

في العتمة التي كتبتِ فيها اسمك.

في المسوّدة التي احتفظتِ بها، خوفًا من أن تفقدي ملامحي.

واعلمي...

أني مالك، لا كريم.

أنتِ من صنعتني من الحرف، فلا تقتليني بالحرف ذاته.

أودّعكِ الآن، لا كضعيفٍ انهزم.

بل كمن اختار أن ينقذ ما تبقّى من قلبه.

اختفى القلم، ولم يضع نقطة في نهاية السطر.

لاحظت ذلك... وابتسمت.

ابتسامتها لم تكن فرحًا، بل يقينًا.

فمن يكتب وجعه ولا ينهيه بنقطة، فإنما يترك الباب مواربًا للعودة.

كانت ذكية بما يكفي لتفهم رمزه.

لو أراد الرحيل، لكتب نهايته كما تُكتب الجُمل الأخيرة... بنقطةٍ حاسمة.

لكنه ترك السطر معلّقًا، لا فاصلة... ولا كلمة أخيرة، كأنه يقول لها:

"سأعود."

❁ ❁ ❁

هذه الأيام تمر ببطء ثقيل على الجميع، والشتاء يقترب بخطى بطيئة، والرياح تعصف بالنوافذ كأنها تغضب من القاطنين داخل البيوت مغلقة الأبواب.

أما تالا، فغمرتها الوحدة بسبب غياب مالك.

ألقت تحية الصباح على كريم، الذي جلس في الصالة يداعب شعر طفلته النائمة بين ذراعيه.

ناداها بصوتٍ حنون، فالتفتت ولم تقترب.

كسر الصمت بصوته المنخفض خشية إيقاظ صغيرته:

- أعلم أن وجودي يُربكك وربما يؤلمك، لكن صدقيني، لم أعد أحتمل الصمت أكثر من ذلك.

توقف لحظةً، ثم نظر في عينيها مباشرة وقال:

- جئتُ لأشكرك على كل ما فعلتِ لطفلتي، شعرتُ بالأمان حين سلّمتُك إياها، أنتِ تستحقين أن تكوني أمها.

صُدمت من صراحته، فأوّلَ مرّة، لم يُراوغ.

بل كل كلمة خرجت من فمه، تُقسِم أنها صادقة.

اقتربت منه، ثم جلست على أريكة أخرى بعيدة، كأنما تخشى أن يتقارب القلبان من جديد.

نظرت إليه بعينٍ دامعة وسألته بنبرةٍ ممزوجة بالعتب:

- ولماذا لم تقل هذا من قبل؟ حين كنتُ أنتظرك، حين كنتُ أجهل هل تراني امرأة... أم غير ذلك.

وإن كان قد اختار الصراحة، فقد قررت أن تختار ما اختاره، لتُنهي هذه اللعبة التي أنهكتها.

أما هو، فضمّ صغيرته إلى حضنه، وقال وهو يراقب تعبيرات وجهها المتحفظة:

- لأنني كنتُ أحمق... ظننتُ أن الوقت لن يسرقنا، وأنني أملك الغد، فإذا به يسرقك من يدي... قبل أن ألمسك.

نظرت إليه وسألته بصوت خافت، لكنه مشحون بالحيرة:

- حين قلت لهاني إنه سرقني منك... هل كنت تعنيها؟

صمت... لن يمنحها إجابة تُرضيها، الصمت أثقل من السؤال ذاته، لذا قررت أن تغيّر السؤال، علّها تفتح بابًا لا يسعه إغلاقه بالمراوغة.

قالت بهدوء:

- لماذا ابتعدت؟ ولماذا اخترت أخرى لا تعرفها؟

تنهد، ثم أجابها بعد برهة صمت طويلة:

- كنت أظن أنني أحميك مني... لكن الحقيقة؟ خفت، نعم، خفت أن أحبك أكثر مما ينبغي، وأن ترفضيني أكثر مما أحتمل.

أخفضت عينيها... لقد عاد إلى الكذب مجددًا.

فأجابته من دون أن ترفع بصرها:

- لم أرفضك... كنت في حاجة إلى كلمة فحسب، إلى نظرة، إلى دفء مشاعرك.

وضع رأس طفلته على الوسادة، ثم وقف.

وقفت هي أيضًا، تستعد للهروب من حرب النظرات هذه.

لكنه قال، قبل أن تفرّ من الصالة:

- ألن تمنحيني فرصة جديدة؟

همست بصوت منكسر:

- ربما لا أستطيع... لأني منحتك كل الود، ومنحتني الغياب... الغياب الذي قتل قلبي ببطء، لقد تأخرت كثيرًا يا كريم.

سألها، بصوت خافت يكاد لا يُسمع:

- هل مات حبكِ لي يا تالا؟
- لا أدري... الحب يُمحى، لكنه أحيانًا يرتدي ثوبًا آخر... أو ينتحر بصمت.

أعاد سؤاله، وكأن الإجابة ستمنحه حياة جديدة:

- هل مات حبي في قلبك؟

صمتت لحظةً، ثم رفعت عينيها إليه وقالت بهدوء:

- ربما دفنّاه معًا... بعيدًا عنا... في الليلة التي اخترتَ فيها الرحيل، واخترتُ أنا الصمت.

قال وهو ينظر إلى الأرض كمن يتأمل قبرًا لا يُزار:

- ومنذ تلك الليلة يا تالا... وأنا دفنت قلبي أيضاً فلماذا لا تُحيينه من جديد؟
- لا نستطيع أن نُعيد ما مات إلى الحياة... أنت اخترتَ حياتك، وتركتني لحياتي.

ثم استدارت وغادرت نحو المطبخ لإعداد قهوتها الصباحية، تاركةً إياه غارقًا في أفكاره... يبحث عن وسيلة لاستعادتها.

❁ ❁ ❁

في المساء ذاته، وبعد أن غادرته تالا، ذهب إلى والدته، لم يكن ينوي التجسّس عليها، بل يودّ أن يتحدّث إليها بما دار بينه وبين تالا فحسب، لكن شيئًا في نبرة صوتها المتهامسة عبر الهاتف أوقفه عند عتبة الباب.

- لن أقدر على حضور البروفة هذه الأيام... ابني يمرّ بمرحلة صعبة... أجل، أجل، أنا آسفة... حسنًا، بعد أيام سأكون في الموعد... نعم، صوتي تحسّن كثيرًا... أشكرك.

كانت الصدمة أشبه بطعنة، لكنها طعنة بلا نزيف. أمه... عادت إلى الغناء مجدّدًا، وفي هذا العمر! أمام المنتجين، على المسارح، ستغني...

كيف سيواجه رفاقه الآن؟ كيف سيقول للناس إن والدته، التي تجاوزت الخمسين من عمرها، تقف أمام الجميع وتغني؟

انتهت المكالمة، ولم تعد سمر الهاتف إلى الطاولة بعد، حين انفتح الباب بقوة، كأن عاصفةً دفعته.

نظرت إلى وجهه... كان متجهّم الملامح، وعيناه تقدحان عتابًا.

ارتعشت أصابعها، شعرت بأنها ضُبطت متلبّسة بجريمة لا تدري كيف تدافع عنها.

اخترق صوته الصمت:

- أتظنين حقًا أن ما تفعلينه يليق بك؟ أتريدينني أن أخبر الناس أن أمّي.. الجدة، ستقف على المسرح وتغني؟ ماذا سيقول رفاقي؟ كيف أضع رأسي بينهم؟

انكمشت سمر على نفسها، كزهرة داستها قدم غافلة. ثم تمتمت بصوت متهدّج:

- لم يكن أمرًا كبيرًا... إنه منتج قديم، عرفته صديقتي نوال، فألحّ عليّ في عملٍ صغير... مجرد عمل صغير، لا أضواء، لا جمهور... صدّقني.

لكن كريم لم يمهلها لتكمل جملتها.

دار في الغرفة مستنكرًا، ثم قطع المسافة إليها وقال:

- مهما صغر العمل، فسيبقى غناء، وسيبقى اسمك على الألسن، هذا ما تريدينه الآن؟ بعد كل ما مررنا به؟

شعرت سمر بالخجل من نفسها، فحفرت الدموع مجرى دافئًا على صفحة خدها الذابل.

- كنتُ أظنّه فرحًا مؤجلًا... شيئًا صغيرًا أردتُ أن أهديه لنفسي، قبل أن يطوي العمر بقايا أحلامي، أقسم لك أنني فكرت في الأمر.. سنصبح بعد ذلك أثرياء يا كريم...
- لسنا بحاجة إلى مالٍ يشترينا ببعض الشائعات، احتفظي بحلمك لنفسك، ولا تورّطي اسمي فيه.

تأمّلته سمر، فرأت فيه الطفل الذي كان يبكي خوفًا إذا تأخّر الليل ولم تعد...

لكنه الآن رجل، يرتجف خوفًا من ضحكة أحدهم، لو ذُكر اسمه مقترنًا بمغنيةٍ.

ولأن الأمومة في قلبها أعتى من حلمها القديم، أطفأت حلمها بقولها:

- حسنًا، يا حبيبي... سأعتذر لهم، لن أعود إلى التدريب، لن أحرجك... أعدك بذلك.

قالت جملتها الأخيرة، وطأطأت رأسها.

فكّرت طويلًا بما حصل بعد أن خرج كريم، ثم همست:

- صوتي جميل... لكنّ صمتي أجمل، لأنه يرضي من أحبّ.

خرج كريم من الغرفة كأنما يفرّ من دويّ انفجار داخلي لم يقدر على احتوائه.

وما إن عبر الممر المؤدي إلى غرفته، حتى اصطدم بتالة أمام باب الصالة... كانت ساكنة، كتمثال من وجع، وصغيرته تحوم حولها ببراءة.

لم تقل شيئًا، ولم تسأله، لكنها استمعت إلى الحوار كلّه.

اقترب منها بخطوات متوترة، ثم قال بقسوة لا تليق بقلبها:

- استمعتِ، أليس كذلك؟ كيف تتجسّسين لتسمعي ما لا يعنيك؟

أخفضت تالا عينيها بصمت، لا هروبًا، بل لأنها شعرت بأنه لم يعد كريم... بل نسخة من مالك، هذا ليس حبيبها.

أما هو، فاستمر يجلدها بكلماته:

- أشعر يا تالا بأنك ستكذبين عليّ ذات يوم، وستخذلين قلبي... أنا متأكد من شعوري، كل من أحببتهم كذبوا عليّ بطريقة أو بأخرى... وأنتِ، لا أريد انتظار طعنتك، لذلك أفضّل الابتعاد قبل أن تأتيني بها.

كلماته كانت طعناتٍ شقّت قلبها، كل حرف فيها سهم اخترق روحها، ومع ذلك، لم تتكلم... لم تعلل... لم تثُر.

وقفت في مكانها مأخوذةً بدهشة هذا الانهيار الذي لا يشبهه، لكنه يشبه الحياة التي أحاطته بالقسوة حتى صار لا يعرف كيف يحب من دون أن يجرح.

راقبها ثواني وهو ينتظر: دفاعًا، احتجاجًا، دمعًا...

لكنه لم يجد شيئًا، وجد عينين مليئتين بالحزن فحسب، وصمتًا يتمدد على جرح مفتوح لا يجد من يضمّده.

اقترب منها خطوة وهمس:

- لا أريدك أن تكوني مثلهم يا تالا، لا أريدك أن تكسري ما بداخلي مثلهم، لقد اخترتك منذ زمن، لأنك الوحيدة التي شعرت بصدقها، لكنني خائف... خائف جدًا أن يأتي اليوم الذي تخرجين فيه من قلبي كما خرج الجميع، وأنا لا طاقة لي أن أخسر شيئًا جديدًا.

نظرت إلى انكساره نظرةً مليئةً بالحزن، وقالت:

- لم أطلب منك أن تختارني، وحتى لو طلبت، ما كنت لتفعلها، أنت لم تختَرني أبدًا، وكنتُ دائمًا آخر اختياراتك، مع ذلك، لم أخدعك ولم أكذب، سكتُّ وابتعدت فحسب، لأنك كلما اقتربت جرحت، وكلما فتحتُ قلبي أوجعتني، ومع ذلك، أحببتك، لأنني رأيت فيك إنسانًا يئنّ من الداخل.

يا إلهي، هل يَسعد الآن لأنها اعترفت بهذا الحب أخيرًا؟

أول مرة تخرج عن صمتها وتعترف هذا الاعتراف.

لكنه جاء متأخرًا جدًا.

انسحبت من دون أن تسمع رده، وتركت خلفها رجلاً يكتشف أوّل مرّة أنه خسر شيئًا لم يملك جرأة على التمسك به.

كل ما دار بينهما في آخر دقيقة كان صمتًا، فيه حب موجوع، وكبرياء جريح، وقلبان خائفان من البوح، لئلّا ينكشفا.

أما هي، فما زالت عالقة بين رجلٍ اختارته من لحم ودم، لكنها لم تقدر على لمس شغاف قلبه، وبين رجلٍ من خيال أقرب إليها من أنفاسها، لكنها لم تقدر يومًا على اختياره.

كل ما بقي هو الانتظار...

وانتظار الحب، حين يكون مكسور الجناحين مؤلمًا حد الموت.

❁ ❁ ❁

سَاد الحزن في البيت، أصبح كريم يستيقظ قبل أهل بيته، ويغادر إلى المكتبة، ولا يعود إلا بعد منتصف الليل، ومرت عشرة أيام على هذه الحال.

بات البيت كئيبًا، وعشّش الحزن في زواياه.

لا يزال كريم غارقًا في حب تالا، لكنه يخشى أن يتحول حبه إلى لعنة جديدة في قلبه.

يخاف أن يكتشف أنها، كغيرها، تجرحه، وتكذب عليه، ثم ترحل.

لذلك تراجع وانسحب، ليس لأنه لا يريدها، بل لأنه يرغب بها طاهرة من كل دنس. لطالما رآها في مكان أعلى، فوق السحاب، فوق الشك، وفوق الجرح.

أما مالك، فهو نسخة كريم، لكنه النسخة التي تجرّدت من التردد، من الخوف، من الحسابات الاجتماعية، ومن الندم والخذلان.

مالك هو كريم، لو أنه لم يكبر في عالم يكسر القلب قبل أن يسمح له بالنبض.

اختفى كذلك، كأنهما متصلان بخيط واحد. حين يتراجع كريم يتراجع مالك، وحين يتألم كريم، يتجسد الألم في صفحات الحبر التي يكتبها مالك في دفترها.

كأن الغياب قدرهما، وكأن عودة أحدهما مرهونة بجرأة الآخر.

وتالا تقف في المنتصف المميت بين رجلٍ اختارته من واقع ينزف، ولم يختره قلبها، ورجلٍ وُلد في قلبها ومن حبرها، لكنه لم يملك الشجاعة ليصير لحماً ودماً.

والآن، تتألّم في غيابهما، لكن كليهما أكثر إيلامًا.

أحبّها كلٌّ بطريقته، وابتعدا عنها كي لا يؤذيانها، فتُركت وحدها في المنتصف.

وبين أن تكون حقيقة أو متخيّلة، تتمنى أن تحب دون أن تفقد فحسب، وتحتضن دون أن تحترق.

يؤلمها عالمها هذا وهما غائبان عنه، ومع ذلك لا يزال قلبها ينبض لكليهما، كأنها تحب رجلاً واحدًا في صورتين.

أحدهما يخاف الاقتراب، بينما الآخر يخاف التجلّي.

❁ ❁ ❁

مرت أيام أخرى، والبيت ساكن كقبرٍ كبير، تتجاور فيه الأرواح ولا تتصافح.

كريم يتهرّب من الجميع، وسمر ما زالت معزولة في غرفتها، والطفلة إمّا نائمة، وإما تلعب في حجرة والدها، وأحيانًا تجالس تالا وتشاكسها.

دخلت تالا غرفتها، وفي يدها فنجان قهوتها الساخن.

جلست أمام طاولتها، فتحت دفترها الذي باتت تملكه وحدها، وأمسكت القلم... وبدأت تكتب:

لا أفهم لماذا يغيبان معًا...

لماذا عليّ دائمًا تحمّل الغياب بصمت، كأنني أنا المخطئة؟

مالك... كأنك لست سوى ظلّ رجلٍ أحببته يومًا.

لماذا، حين أحتاجك أكثر، تختار الهروب؟

صديقي القديم... لماذا تخيفني أن أكون صادقة؟

لم أكذب، ولم أخن، ولم أُطفئك...

فلماذا تظلّ تخشى اقترابي؟

ألا أستحق أن يُحارِب من أجلي أحد؟

ألا يحقّ لي البقاء في قلب رجل واحد... من دون نفي؟

لستُ سطرًا في رواية، ولا محطة انتظار...

أنا فتاة تنزف روحها كل يوم، ولا أحد يراها... أو يشعر بها.

وما إن وضعت القلم، حتى ارتجف الضوء الخافت في الغرفة، وظهر ظلّه على الحائط... ثم جاء صوته الحاد:

- أتكتبين عني مجددًا؟

تجمّدت، ثم التفتت... ها هو يقف خلفها، بوجهه الغاضب، وبعينين تشتعلان غيرة لم تخمدها الأيام.

قالت بصوت متهدّج من الألم:

- لقد طالت غيبتك... كعادتك، تختار الأسهل، لطالما كنت بطل هذه الرواية.

تقدّم منها خطوة، ونظر في عينيها، ثم سأل:

- وكريم؟ أهو حاضر دائمًا؟ هل تحبينه يا تالا؟
- لماذا لا تثق باختياري إياك، رغم قسوتك وشكوكك الدائمة؟

صرخ في وجهها:

- اخترتُك؟! وأين كنتِ حين بكيت وحدي في صمت الحبر؟ حين كتبتُ لكِ فاختفيتِ؟ حين تمنّيتُ أن تمسكي بيدي، فهربتِ إلى واقعه؟

اقتربت منه، بعينين دامعتين، وقالت:

- لأنني أخاف غيابك، يا مالك... لأنك تأتي كالعاصفة، وترحل كالدخان، كلما حاولتُ الإمساك بك، تبخّرت... أنا أحبك، ولا أنكر ذلك، لكنني أحتاج أن أشعر بأنك... حقيقي.

أشاح بنظره عنها، بعد أن كان يرنو إليها، وقال بصوتٍ منخفض:

- وأنا... أنا أغار، أغار من كونه يستطيع أن يراك، أن يلمسك، أن يسمع ضحكتك... وأنا مجرد فكرةٍ تعبر في خيالك.
- لكنكَ... الفكرة التي عشقتها.

صمت، ثم تركها وتقدّم نحو الطاولة.

قلّب صفحات الدفتر، كأنه يفتّش عن نفسه بين سطوره.

ثم سحب القلم من بين أصابعها من دون أن ينظر إلى وجهها، وقال بهدوء أخافها:

- دوري الآن.

ثم بدأ يكتب... ببطء:

أحبك... لكنني لم أُخلق لكي أبقى.

أنا الطيف، والظل، والعبارة التي كتبتِها حين تشاركنا عزلة واحدة.

أحبك بما يكفي لأرحل، قبل أن أؤذيك... لأنني إن بقيتُ، فسأكره كريماً، وسأكرهك معه.

لا تجعلي مني سطرًا آخر في دفتر الألم.

وداعًا... إلى أن تُجيدي النسيان.

أو... تعودي يومًا لتكتبي لي فحسب.

أعاد القلم إلى مكانه، ثم استدار إليها.

أرادت أن تصرخ، أن تتوسّل إليه البقاء... لكن قدميها رفضتا التحرك، واختنق صدرها بالحزن.

نظر إليها مرةً أخرى، ثم انحنى أمامها وهمس:

- أنا وأنتِ... نلتقي حين لا نكون نحن فحسب.

وغاب كعادته، وتركها تصارع وحدها لعبة الهجر، هذه التي لا تنتهي.

لم تعد تعرف متى ستُنهي الرواية لصالحها... بعد أن تتصالح وإياه، ويربحا معًا المعركة ذاتها، فلا يخرج منها أحد خاسرًا.

❁ ❁ ❁

في صباح رمادي، جلست سمر قرب النافذة في غرفتها، تتأمل الفراغ الممتد خلف الزجاج.

اقتربت تالا منها بهدوء؛ لم تسمع سمر طرقات الباب، فهي شاردة في ذكرياتها البعيدة والقريبة.

جلست تالا على الأرض، قرب قدمي خالتها، وأسندت رأسها إلى ركبتيها، كطفلة عادت لتحتمي بأمٍّ لم تلدها.

همست بصوتٍ دافئ:

- أتعلمين يا خالتي؟ كنت أراقبك وأنتِ تتدرّبين... كنتِ تضيئين غرفتكِ كغيمةٍ سعيدة في بداية الربيع، كنتِ تغنين من دون أن تكترثي لعواصف الشتاء... كأن صوتكِ يرفض أن يشيخ.

مدّت سمر يدها، وأخذت تمسح على شعر تالا برفق، ثم همست بابتسامة مشرقة:

- صوتي لا قيمة له إن صار عبئًا على من نحب.

نظرت إليها وقالت:

- ربما لم يقصد ما قاله.

قالت سمر بهدوء فيه شيء من الانكسار:

- بل قصد، يا تالا... أنا أعرفه، حين يغضب لا يكذب، وحتى لو اقتنع الآن، فسيظل يشعر بالحرج داخله، لا أريد أن أكون مصدر إحراج لابني، أنا فقط... أريد أن أُغني قبل أن يخذلني صوتي.

جلست تالا جوار خالتها، وأمالت رأسها على كتفها، وقالت:

- أذكر أنكِ لم ترفعي صوتكِ يومًا على أحد، فلماذا تخافين أن ترفعيه في الحلم؟ تحدّثي معه يا خالتي، يجب أن يسمع قلبك ويشاركك حلمك.

فأجابت:

- لا يا تالا، لا تفتحي هذا الباب... لا أريد صدامًا بينكما، لا أريد أن أفقدكما معًا.

- من يحبكِ يجب أن يدفعكِ نحو الضوء، لا أن يخفيكِ خلف الستار. لِمَ لا، يا خالتي؟ ألستِ في سبيله تخلّيتِ عن هذا الحلم؟ فلماذا تتخلّين عنه مرة ثانية... وفي سبيله أيضًا؟

غادرتها من دون أن تنصت لها، وهي عازمة على التحدث مع كريم بهذا الأمر.

لا يصحّ أن تأخذ دور المتفرّج على مجريات الأمور، يجب عليها أن تغيّر الأحداث لصالح الاثنين، فيكفيهما ما عاشاه من بؤس هذه الأيام.

في المساء، انتظرت تالا كريم في صالة البيت. لم تنم، بل ظلّت مستيقظة بانتظار محادثته.

وحين دقّت الساعة مُعلنةً انتصاف الليل، دخل البيت بوجهٍ مرهق.

نظر إليها دهشًا من جلوسها هنا في هذا الوقت المتأخّر، بينما وقفت بحزم وقالت:

- يجب أن تتحدث إلى والدتك، لا تهرب كعادتك... عليك أن تتحدث إليها في أمرها.

رمى المفاتيح على الطاولة وجلس، أرجع ظهره إلى الوراء، وقال:

- أظن أن الموضوع قد انتهى، فلا داعي لفتحه مرة أخرى.

فقالت:

- لماذا انتهى؟ إنها حزينة، ألا تشعر بها؟ تشعر بأنها عبء عليك... أتفهّم نظرتك للمجتمع الذي تعيش فيه، لكن لا تقتل حلمًا عاش في قلبها سنين، لأنك خَجِل منها فحسب.

رفع صوته عاليًا:

- لأنها أمي! كيف تريدينني أن أراها واقفة على المسرح يصفّق لها الناس؟ ماذا سأقول لرفاقي؟ لجيراني؟ لابنتي؟ نحن لا نعيش على هذه الأرض وحدنا، الناس... يقاسموننا كل شيء، فيجب أن نحسب عدد خطواتنا.
- قل لهم إن أمك شجاعة، إنها حاربت الزمن والحزن، وعادت أخيرًا لما تُحب، قل لهم إنك فخور بها، أو على الأقل... دعها تشعر أنها ليست وصمة عار في حياتك.

صمتت، ثمّ نظرت بعيدًا وتنهّدت، وبعدها قال:

- أخاف عليها... أخاف أن تضحك عليها الدنيا، أن يؤذوها بكلمة، أن تجرحها نظرة.

وقفت تالا أمامه وقالت:

- أحيانًا، الحب لا يكمن في حمايتنا المبالغ فيها لمن نحب، بل في أن ندفع من نحب ليواجه الحياة بقلب قوي.

وقبل أن ترحل، أردفت:

- لكنْ لا تنسَ... أنها تخلّت عن حلمها كرمى لك، لكي ترعاك، ألا يحقّ لها أن تعيشه الآن، ولو جزءًا بسيطًا؟ ولو كنتَ جمهورها الوحيد.

تركته يفكّر في والدته، على أمل أن يغيّر رأيه في الأمر.

۞ ۞ ۞

وعاد يشاركهن كل شيء.

وفي الصباح، دهشت والدته حين رأته يتوسط مائدة الإفطار.

ابتسمت بسعادة، وسرعان ما هرعت نحوه تعانقه بدفء الأم التي طال شوقها.

جلسوا هم الأربعة حول المائدة، يتضاحكون، يتحدثون، يتشاركون الخبز.

وبعدما انتهوا من الطعام، اصطحبها إلى غرفتها.

ركع على ركبتيه أمامها، أخذ يديها بين يديه، قبّلهما برقة، ثم رفع نظره إليها وقال بصوت منخفض يشبه الرجاء:

- هل تسامحينني؟ سامحيني يا أمي... كنتُ أعمى في خوفي عليكِ. أنتِ نجمة لامعة، وصوتكِ أجمل من صمتك.

نظرت إليه بخجلٍ وهمست:

- لا داعي لهذا الكلام... أنا كبيرة، ماذا سيقول الناس عني؟

أجابها بثباتٍ وعيناه تبرقان بالحب والفخر:

- سيقولون إنكِ امرأة لا يحدّها عمر، ولا يُخفيها خجل، سيقولون إنكِ عدتِ بعد غيابٍ طويل، لأنكِ لا تشيخين حين تغنين.

لمعت الدموع في عينيها، وهمست بصوت مرتجف:

- ستفخر بي... حتى لو أخطأتُ مراراً؟

ضمّها إلى صدره، ثم قال بحرارة:

- أمي لا تخطئ... أنا من أخطأ حين أُجبركِ على الصمت، لم أفهم حينها أن صوتكِ هو نجاتكِ، أنا آسف.

ضحكت بخجل، ثم ابتسمت بلطافة كأن ذكرى ما مرّت أمامها، وقالت:

- ما زلتُ أذكر... حين كنتُ أغني، كان والدك يضحك ويقول لي: "أشفق على الجدران التي تسمعك، أظنها ستخرّ ساجدةً من الضحك" لكن... حين ظهرتُ على المسرح أول مرة، كان أول من صفق لي، وبعدها غنيتُ... له، ولي، ثم لك.
- ولتالا... غنّي، يا أمي... غني، لأنك لم تُخلقي لتعيشي صامتة.

قالها كريم بثقة، فابتسمت سمر بخجل وهمست بصوت متهدّج:

- لكني الآن جدّة، يا كريم... والناس؟

وضع إصبعه على شفتيها بلطف، وقاطعها بحنان:

- سأقول لهم: هذه أمي... امرأة غنّت رغم العتمة، وحلمت رغم التجاعيد، ورفعت رأسها رغم ألف خوف.

وهكذا كانت العودة...

بخطوة خجولة، وصوتٍ لم يخفت، وحبٍّ صادق.

وبفتاةٍ اسمها تالا... رأت الحلم في امرأة تُدعى سمر، وآمنت أن الغناء لا يشيخ، حين يكون للحياة.

۞ ۞ ۞

في المساء، خبت ضوضاء البيت، وفيما الصغيرة تنام على سرير تالا، تنعم بهدوء المكان.

جلست تالا والدفتر بين يديها، فتحته، وفي عينيها وهجُ انتصارٍ لم يكتمل.

اليوم، ليست هي البطلة... بل سمر.

سمر التي رفعت صوتها أخيرًا رغم خوفها، رغم السنوات التي دفنت فيها الأغنية.

سمر التي غنّت بقلبٍ آمن، وهزمت خجلها بعبارة صغيرة: "أنا ما زلتُ أحلم."

ابتسمت تالا بخفّة، ثم كتبت سطرها الأول... بنبضٍ يرتجف.

كانت تغنّي، وصوتها يرتجف كعصفورٍ تحرّر في التوِّ من قفصٍ ضيّق.

وأمامها وقف ابنها، ذاهلًا...

كمن صُفع أخيرًا بالحلم الذي أرّق مضجعه طويلًا.

لا أحد يعلم عدد المرّات التي خنقت فيها صوتها، كي تُرضي العالم فحسب.

أما اليوم...

فقد غنّت أخيرًا، لترضي نفسها.

كتبت كثيرًا في هذه الليلة الباردة...

عن سمر، عن المسرح، عن دمعة كريم، عن الدفء الذي اجتاح البيت بعدما تخلّص من ثقله الثقيل.

وحين رفعت رأسها لتُريح أصابعها، فوجئ قلبها بوجوده هناك، واقفًا في الزاوية كعادته...

يحضر دومًا في التوقيت الخطأ من اللحظة الصحيحة.

لم ينطق، تقدّم بخطوات بطيئة، وجلس أمامها على الكرسي الخشبي القديم.

عيناه تبحثان في عينيها عن صدق لا يجرحه، عن أثر، عن ذكرى، عن اسمه الذي لم يُكتب.

لقد كتبت عن الجميع...

ونسيته.

قال بصوتٍ خافت لا يشبه العتاب، بل يشبه التعب...

كأنّه ملّ من تكرار السؤال ذاته، بالجرح نفسه، دون إجابة:

- لماذا تكتبين عنهم جميعًا... وتنسين نفسك؟ ألم يحن الوقت لتكتبي عنك؟ عن وجعك؟ عن حبك الذي ضاع بين السطور؟

أخفضت عينيها قليلًا، كأنها خجلت من الحقيقة التي يعرفها، ثم همست بصوتٍ لا يكاد يُسمع:

- ربما... لأنني حبرٌ يمشي في ظلّ الحكايات، وربما... أكتبهم لأهرب منّي.

تنهّد بأسى، واقترب منها في صمتٍ ثقيل، مدّ يده إلى القلم، قلب الصفحة بخفّة، ثم كتب سطرًا واحدًا:

"حين تهربين من ذاتك... أنا من يضيع."

نظر إليها بعد أن أنهى السطر، كان وجهه غريبًا... لا يحمل غضبًا، ولا قسوة، ولا غيرة، بل حزنًا شاسعًا، بحجم الفقد، كأنه أدرك أخيرًا أن لا أحد ينجو من الحب... وأن الحكايات الكبيرة، تستنزفنا أكثر مما تُبهجنا.

ثم قال بصوتٍ مبلّل بالأسى:

- جئتُ لأنهي الحكاية، ليس لأنني لا أحبك، بل لأنني أحبك... إلى درجةٍ أخشى عليكِ فيها من الأذى.
- لكنني ما زلتُ في حاجةٍ إليك... حتى لو كنتَ حرفاً في كتاب.

همست بها تالا، وصوتها مختنق كأنّه رجاء، لكنّه هزّ رأسه نفيًا، ثم أمسك القلم، ووضع نقطةً صغيرة في آخر السطر.

نقطة...

بسيطة في شكلها.

عنيفة في وقعها.

نقطةٌ بدت كرصاصةٍ أنهت معركةً خاسرة.

نقطةٌ ليست علامة ترقيم...

بل وداعًا لا يُعاد.

أدار لها ظهره ومشى...

لم ينظر خلفه.

لم يقل "إلى اللقاء".

لم يَعدها بشيء.

مضى فحسب...

واختفى كأنه عاد إلى الجدار الذي خرج منه.

أما هي...

فبقيت تحدّق في تلك النقطة التي أنهت كلّ شيء،

ولم تكن في نظرها ختامًا...

بل علامةً على حكايةٍ لم تنتهِ بعد.

۞ ۞ ۞

الفصل الرابع

حين يغيب أحدهم، لا يعني ذلك أنه انتهى.

إنه يعود، وقد كان ينتظر على هيئة شرارة أو خنجر صوت قديم.

لقد تسلّل من بقايا الشقوق، وأشعل الصراع من جديد.

الآن، ستتبدّل الأدوار، يتناوب الظلّ والضوء على كتابة النهاية، لكنَّ من يُمسك بالقلم أخيرًا... لا يَرحم.

جلست تالا تداعب الصفحة البيضاء بقلمها.

خطّت بحروف مجروحة اسم كريم، حبيبها الأول.

تذكّرت مالكاً... وغيرته.

ماذا سيحصل لو جاء ووجد اسم كريم يزيّن صفحتها؟

طبعًا، سيقول لها بصوته الخشن:

«أتحبّينه حتى الآن؟ بعد أن صرتُ مَن يملأ فراغ جُمَلك؟»

ابتسمت لهذا الخاطر، خطّت على زجاج النافذة بأصابع ترتجف من البرد اسم من ملك قلبها.

لكن، فجأة، حين نظرت إلى دفترها، وجدت أن مالك قد كتب... وأنه يصغي إلى هذيانها.

مالك، رجلها الوحيد، الذي اخترق حدود الخيال ليكون معها.

ليس قبله أحد، ولن يأتي أحد بعده.

وكأنه عاد ليلعب بها مجدّدًا.

تنهّدت:

- هذا ليس ما أردت كتابته...

جاء صوته بعيدًا، بين ظلال الماضي وأرق الحاضر.

- ولكن، ما سيقرأه الناس... أليست الحقيقة دائمًا لمن يجرؤ على كتابتها؟

واختفى الصوت، كأنه لم يكن.

فتحت صفحة جديدة، خطّت في أعلاها:

الفصل الرابع:

"صراع الحبر"

وما إن شرعت في الكتابة، حتى ظهر صوت ناعم من العدم:

- حين تعجز الكاتبة عن إكمال الرواية... يظهر الكاتب الحقيقي.

قفز قلب تالا من الفرح، تأملت تلك الجنيّة التي عادت فجأة، وكأنها لم تغب أبدًا.

قالت تالا بصوت يملؤه مزيج من الاستغراب والحنين:

- جنين؟! هل أنتِ هنا حقًا؟ كيف عدتِ؟ ولماذا اختفيتِ كل هذا الوقت؟

حلّقت جنين حولها ثم قالت:

- أنا لا أحتاج إلى دعوة لأعود، كنتُ هنا بين صفحات كلماتك ودهاليز خيالك، كنتُ في انتظار اللحظة المناسبة للعودة.
- لكن، لماذا ابتعدتِ عني، وتركتِني أصارع وحدي جيوش القلق التي سكنت قلبي؟
- كنتُ أراقبك من بعيد، جئتك مرارًا وأنتِ تشقّين طريقك في عالم لم يرحم ضعفك.
- ماذا سيحدث الآن؟ هل ستبقين معي لنكمل هذا الفصل معًا؟ أم إن اللعبة التي بيننا انتهت؟
- اللعبة لم تنتهِ، بل ربما بدأت في التو.

فتحت صفحة جديدة وبدأت تكتب:

إلى من أشعل الحرف فيَّ ثم غاب.

كنتَ وهمًا لذيذًا فصدّقتك، حتى غصتُ فيه.

لقد تعلّمت الكتابة على يديك.

لقد جعلتني أحب اللغة بيديك، لقد جعلتك بطل كل الروايات.

كنتَ تقول لي إنّ الحرف خيانة حين لا يُقال بصدق.

فهل صدقت حين قلتَ إنك باق.

كل هذا الرحيل... كان يكفي أن تخبرني أنك لا تقدر على البقاء.

لقد مر شهر على غيابك غير الرحيم بقلبي.

ولأنك اختفيت من أوراقي، فلابد له أن يقترب.

اقترب كريم، ليس لأنه الأجمل، بل لأنه الأوفى.

وضعت القلم بلطف، وأسدلت جفنيها المثقلتين بالدمع، اقتربت جنين مما كتبت تالا، وقالت:

- عدتِ لتكتبي عن كريم، إذن، هل غادر مالك قلبك تمامًا، أم إن الحبر خانك؟

فتحت تالا عينيها وابتسمت بمرارة، ثم قالت بنبرة مرتجفة:

- هل عليّ أن أظل واقفةً عند بوابة لا تُفتح؟
- لقد رأيتِ كل شيء؟ كنتِ تتأملين ما يكتبه... بوجع يمزِّق قلبي؟ كنتِ تحبين مالك، وكتبتِ له مرارًا، وهذا الدفتر يشهد، ثم إنكِ كتبتِ كثيرًا عن خذلان كريم لحبّك، فكيف تنتقلين ببساطة من حب مالك إلى حب كريم؟

أجابتها، كأنها تدافع عن نفسها أمام محكمة ضميرها:

- روحي نزفت على عتبة انتظاره، مالك هو من كتب معي حرفًا بحرف، ثم هجرني... وأنا ما زلت أكتب، لم أنتهِ بعد مما كتبه، لكنه تركني في

المنتصف، كعادته، أما كريم، فكان الضوء الذي بقي حتى انطفأت كل الشموع، ربما لم أبحث عن حب، بل عن أحد... لا يرحل.

صمتت، ثم فتحت صفحة جديدة، وكتبت:

لو كنتَ حاضرًا، لَمَا رأيتُ سواك...

لكنك غبت، وتركت قلبي لغيرك.

فلا تلمني، يا من كنتَ تعرف أن قلبي هش.

لا تلمني، فأنت من صنعت الفراغ، وأنت من دفعني لأملأه بغيرك.

ألا تذكر يوم قلتَ لي: لا تكتبي إلا لي؟

إذن، لماذا لم تعد تقرأ؟

ألا تذكر حين تمنّيتك أن تكون حقيقيًا؟

حينها بكيت، ولكني لم أكتب... في تلك اللحظة... أي شيء.

همست جنين:

- جميل... وجارح، هل تعلمين أنكِ تنتقمين من مالك بالحب؟

أجابت تالا:

- أنا لا أكتب انتقامًا، بل أكتب نجاة.

ضحكت جنين بسخرية وقالت:

- وأنا التي ظننتُ أنكِ ستكتبين النهاية على أنقاضه!

ثم حلّقت في فضاء غرفتها، وجلست على كتفها الأيمن، وقالت وهي تُؤرجح قدميها:

- هل ترين أن كريم سيكون نهاية مناسبة لما بدأته مع مالك؟

هزّت تالا رأسها وقالت:

- لا أحد يمكنه أن يشاركني القلم كما كان مالك، لا أحد يمنح السطر روحًا مثله، لكنه غاب، وكريم... ظلّ، وهذا يكفي، أنا لم أختره بديلاً، اخترته لأنني تعبت من اللاشيء.
- فلماذا اقتربتِ من كريم إذن؟ هو لم يشاركِكِ يومًا ألم البوح، لم يلتقط القلم منكِ، ولم يقل: دعيني أكتب بدلًا عنك.
- كريم لم يكتب لي، لكنه قرأني جيدًا، لطالما نظر إليّ وكأنني آخر كتاب على الأرض.
- وأنتِ... هل كنتِ البطلة؟ أم الكاتبة؟ أم الممحاة التي مسحت مالكاً من السطر الأخير؟

أغلقت تالا دفترها بقوة، وقالت بحزم:

- أنا الكاتبة، وسأكتب نهاية تليق بي...

سكتت قليلاً، ثم قالت بألم:

- وإن خذلني أبطالي.

ربما لأنها على يقين أنه سيأتي اليوم الذي يخذلها فيه مالك ويكتب النهاية على أنقاض آلامها.

❁ ❁ ❁

في مساء يوم آخر، كانت تستند إلى حافة الشرفة، تحدّق في شجرة التوت التي نَمت على حين غفلة منها، كأنها تواطأت مع قلبها، وأدركت أن الأمر لم يعد يحتمل الانتظار.

جاء صوت الحب الأول من خلفها، دافئًا كخيط نور في عتمة، قال:

- أتعلمين؟ منذ أن أصبحنا شبابًا أريد الهرب منك، لكنّك كنتِ دائمًا هنا... في قلبي.

استدارت إليه ببطء، وتأملت ملامحه الوسيمة.

كريم لم يكن ابن خالتها فحسب، ولم يكن حكاية صمت طويلة فحسب، بل الرجل الذي كتبت عنه ثلاثة فصول في روايتها، ولم تُسمِّه إلا في فصلها الرابع.

همست:

- وأنا... كنتُ أجيد التجاهل كثيرًا.

ضحك ضحكة قصيرة، لكنها صادقة، ثم اقترب، ووقف إلى جوارها، واستند بذراعيه برفق إلى حافة الشرفة.

- لكنكِ لم تفعلي... فقط سكتِّ، وهجرتِّ، وهربتِ إلى عزلتكِ.

أشاحت بوجهها، وعادت تحدّق في شجرة التوت، أما هو، فأكمل بهدوء:

- كنت أخشى أن أتورّط بكِ أكثر مما ينبغي، كنتِ تشبهين كلّ الأشياء التي تخيفني: الهروب، الصمت، التلاشي... وأنا لا أعرف كيف يحب رجل مثلي أنثى بكل هذا النقاء.

ارتبكت من كلماته الحانية، ثم همست:

- لطالما ظننتُ أنك لا تراني كما أنا.

ابتسم لابتسامتها التي لا تليق إلا باللحظات الصادقة، وقال:

- كنتُ أراكِ جيدًا يا تالا، وربما أكثر مما تتصورين، لكنني كنتُ غبيًا... كنتُ أرتّب مشاعري في العتمة، كأنما أخشى أن يفضحها نور الصباح.

لم تردّ تالا، ظلت صامتة، عيناها تتأملان الأفق، وأصابعها ترتجف من البرد، ثم بهتت عندما قال كريم:

- تالا... أريد أن أحبك بصوتٍ مرتفع، تعبتُ من الصمت.

رفعت رأسها إليه بدهشة، وفي قلبها وردة ازدهرت، ثم قالت بصوت مرتعش:

- لم أتوقع أن أسمع هذا... منك.

أجابها وهو ينظر في عينيها، من دون خوف من رفض أو تردد:

- أنا لا أطلب شيئًا... لا جوابًا، ولا وعدًا، أنا أقول لكِ ما ظلّ ساكنًا في داخلي سنين، لقد كنتِ الأمان الذي خفتُ الاقتراب منه... لكنني الآن، لم أعد أريد البقاء بعيدًا.

لم تقل شيئًا، لكن عينيها قالتا كل شيء.

وحين رفع يده ولمس أطراف أصابعها برقة، لم تسحب يدها، وكأنها تمنحه لحظة راحة... بعد حربٍ طويلة.

❁ ❁ ❁

ها قد مرّ يومان على ذاك الاعتراف، وهي تخشى الرد عليه.

أضاءت المصباح الخافت، فتحت دفترها، وجلسَت على طرف سريرها، على غير عادتها.

يداها ترتجفان، ليس من البرد، بل من الحب.

وبدأت تكتب:

لم يكن صوته عاديًا، ولم تكن نظرته عابرة.

كان شيء في طريقته حين نطق اسمي، جعلني أشعر أن العالم كله يناديني من خلال ندائه.

كريم، الرجل الذي انتظرته دون أن أعلم.

سأمنحه فرصة، ليس لأنني ضعيفة، بل لأنه يستحق أن تؤمن به امرأة أرهقها الشك.

ثم تنهدت، وكتبت سطرًا جديدًا:

سأدعك تقترب، لكن ليس كثيرًا.

بما يكفك ألا أعود وحيدة فحسب.

وفجأة ارتجّ طرف الورقة.

رفعت تالا رأسها، وإذ بها ترى الجنية الصغيرة.

رفرفت بجناحيها كفراشةٍ شقيةٍ، وحطّت على صفحة الدفتر بجوار كلمات الحب، ثم قالت بنبرة حادة، أكثر قسوة من ليلة يناير:

- هل تكتبين هذا حقًا؟

صاحت تالا:

- ألا يمكنك الظهور بطريقة أقل فوضوية؟

رفرفت جنين بجناحيها، وسارت فوق الدفتر بخفة، ثم قالت وهي ترفع رأسها إلى الأعلى:

- ظننتُكِ أذكى من هذا، أحقًا قررتِ أن تمنحيه فرصة؟ لم يمضِ سوى يومين على اعترافه، وأنتِ تذوبين فيه كما ذابت دموعك من قبل مع مالك.

ردّت تالا بهدوء:

- كريم ليس كمالك، لا تشبّهينهما ببعضهما، كريم لم يعد بشيء، ثم اختفى، فقد تحدث حين هرب مالك.

ضحكت جنين ثم قالت:

- كلهم يتكلمون، والكلام سهل، لكن أين سيكونون حين تصعب الأيام؟ أين سيكونون حين يبدأ التعلق؟ الهاربون لا يلوّحون، إنهم يتركون الأبواب مفتوحة، كي تعتقدي أنهم سيعودون؟

صمتت تالا، أغلقت الدفتر وكأنها تحمي كلماتها من عيني الجنّية.

طارت الصغيرة وحطّت على كتفها، وهمست في أذنها:

- اكتبي كما أقول لك، اكتبي أنك ستبتعدين، اكتبي أنك تعلمين أن الحب بابٌ خلفه نارٌ حارقة، وأنتِ لا تريدين أن تموتي مرة أخرى.

هزّت تالا رأسها ببطء، وتمتمت:

- لا أريد الهرب من كل من يقترب، لا أريد أن أعيش عمرًا أُغلق فيه قلبي لئلّا يتألم أكثر، أريد أن أحب فحسب، وإن أخطأت، فلا بأس.

لم يعجب جنين هذا الكلام، فقفزت على الدفتر، قلّبت صفحاته، ثم وقفت في منتصف السطر، وصرخت:

- كفّي عن هذا الضعف! الرجال لا يأتون إلا ليأخذوا، ليسرقوا، ليكذبوا، ثم يختفوا، مالك كان الدرس، وكريم سيكون الكارثة، ابتعدي الآن، مادام قلبك لم يسقط كليًا.
- ولكن ماذا سيحصل لو لم يكن مثل مالك؟ ألا يستحق أن أكتشف، أن أفتح الباب فحسب؟

صرخت جنين بها:

- لا تفتحي شيئًا! كل الأبواب التي تُفتح للحب، تُغلق على الألم، اسمعي يا تالا، أنا التي رافقتك حين بكيتِ أياماً، حين سهرت الليالي ولم يأتِ أحد، هل تريدين تكرار ذلك؟ اكتبي أنك قوية، لا تحتاجين أحدًا.

نظرت تالا إلى الصفحة، أمسكت القلم مجدّدًا، ثم كتبت بخط واضح، ودموعها تنسكب بصمت:

لا أريد أن أكون قوية كل الوقت.

أريد أن أكون ضعيفة فقط، وإن كُسر قلبي، فلن أندم على كونه أحَبّ.

صرخت جنين، وكأن الكلمات أحرقتها:

- ستندمين، ستقفين هنا بعد أشهر، وتكتبين بدموع أكثر، ولن أكون معك لأنصحك مرة أخرى.

رفعت تالا رأسها، وقالت بثقة:

- ربما أندم، لكنّي لن أعيش بقلب مغلق، وإن رحل، فأنا من فتحت الباب، هو لم يكسّره.

نظرت إليها جنين نظرة تحدٍّ، ورفرفت بجناحيها، ثم ابتعدت من دون كلام.

غادرت بحزن على حال تلك الفتاة الضائعة....

لكن صفحة الدفتر ظلت مفتوحة، تحمل اسم رجل اقترب، فكتبت له رواية.

❁ ❁ ❁

في الزاوية الدافئة من صالة المسرح القديم، وقفت سمر أمام الميكروفون، تحاول لملمة نفسها وتهدئة ضربات قلبها.

خلفها البيانو، وأمامها كادر العمل، وقلبها يرتجف من شدة القلق والتوتر.

فركت يديها، ثم قالت:

- أشعر أن حجرتي جافة، كأرض قاحلة لم يزرها سحاب ممطر إطلاقًا. هل هذا طبيعي؟

اقتربت تالا منها، وأمسكت بكفها، ثم ابتسمت بثقة، وقالت:

- آمني بصوتك كما آمنّا به جميعًا.

اقترب كريم ووقف جوار والدته من الجهة الأخرى، وقال:

- الخوف جزء من الموسيقى، تمامًا كالسكون الذي يسبق الفن.

كانت هذه أول مرة يشاركونها حلمها، ويأتون من أجلها.

جلست تالا، وجلسَت الصغيرة بين تالا وكريم في المقاعد الأولى، وكأنهم جمهورها الوحيد.

التفتت سمر إلى فادي، كان يضع السماعات على أذنيه، ينتظر اللحظة التي يتحول فيها ترددها إلى غناء مثير.

قالت له بصوت مرتبك:

- أشعر أن الفكرة كلها مجنونة، امرأة تخطّت الخمسين تعود لتغني.

عقد فادي ذراعيه، وردّ بثقة:

- أنا هنا من يسمعك، ولن أحكم عليك قبل أن أسمع.

أغمضت سمر عينيها، وأدارت جسدها نحو المسرح، وبدأت تغني.

في البداية، خرج صوتها مترددًا خافتًا، كحكاية خجولة تُروى أول مرة.

ثم شيئًا فشيئًا، بدأ الصوت يعلو، ينمو، يلمع، وكأنها تنقّب عن ذاتها، وتُخرِج المرأة التي خبأتها طويلًا.

كانت تغني من قلبها، لا من فمها، تغني لتشفى، لا لتُبهِر.

التمعت عينا تالا وقالت بانبهار:

- وكأنها تنثر نفسها في الهواء، وتحيا من جديد.

تأمّل كريم والدته بافتخار، وقال:

- هذا الصوت لن يضيع مرة أخرى.

وما إن أنهت الأغنية حتى دوى تصفيق من الأربعة، قال فادي بصوت مليء بالحماسة:

- هذا ما كنت أبحث عنه، صوتك ليس جميلًا فحسب، بل صادقٌ ومليء بالأحاسيس الرائعة، فلا يستطيع أحد تدريبه.

نظرت سمر إليه بابتسامة، ثم التفتت إلى أفراد عائلتها الصغيرة، الذين صفقوا بحماسة مرة أخرى، وهم يبتسمون كأن النجاح له طعم عائلي.

قال فادي لها:

- نحن جاهزون الآن، إن كنتِ مستعدة، فالجمهور في انتظارك.

أجابته سمر، وعيونها تنظر إلى كريم المبتسم لها:

- أنا مستعدة للعودة، هذه المرة لن أهرب.

❁ ❁ ❁

في غروب يوم آخر، اجتمعوا في صالة البيت.

أعدّت تالا أبريق الشاي بالنعناع، وأعطت كل واحد كأسه، وجلسَت جوار خالتها على الأريكة.

بدأت سمر تغني بصوت خافت، تلبيةً لطلب كريم، ونظراتها تنتقل بين وجه تالا وكريم.

تارةً تبتسم لهما، وتارةً تراقب بصمت، العيون الناطقة من دون صوت.

أما على الأرض، فالصغيرة تلعب بالدمى المتناثرة، صرخت في وجه تالا قائلة:

- أنا الأميرة تالا، وأنت لست أميرة، بل إن تزوجتِ أبي، فستصبحين ملكة!

شهقت تالا لجرأة الصغيرة، واصطبغ وجهها بالاحمرار، ثم صاحت معنّفةً الصغيرة:

- لا تقولي هذا الكلام مرة أخرى!

ضحكت سمر بشدة، ثم قالت:

- أظن أن الطفلة أذكى مما نعتقد، ليت كل شيء يُقال بعفوية الأطفال.

ابتسم كريم وهو ينظر إلى تالا المرتبكة، وقال بنبرة مازحة، وهو يرفع أحد حاجبيه:

- إذا قالتها أميرة البيت، فربما علينا أن نفكر بالأمر.

ضحك هو ووالدته، أما تالا فكانت تنظر إلى الأرض، تبحث عن نفسها فلم تجدها.

فاحتضنتها الصغيرة، ولفّت ذراعيها حول رقبتها، ثم قالت:

- أنا أحبك يا تالا، لذلك أريدك أن تكوني معي دائمًا.

قبّلت تالا خدها، وقالت:

- وأنا أحبك أكثر مما تتخيلين.

ابتسمت سمر لدفء هذه المشاعر، وقالت:

- كأن الحياة تعيد إلينا الأحلام التي سرقتها منا حين كنا صغارًا.

شعر كريم بأنّ والدته على وشك استذكار الماضي، فقال مبتسمًا:

- لنحتفل إذن بنجاحك يا أمي، وبالليلة التي ستغنين فيها أمام الجمهور.

قالت سمر بمرح:

- لا ترفعوا سقف توقعاتكم، فأنا ما زلت خائفة.

ردّت تالا بنبرة صادقة:

- الخوف هو أول خطوة نحو تحقيق الحلم، وسنظلّ معك إلى النهاية.

قالت الصغيرة وهي تركض إلى حضن جدتها:

- وأنا سأغني معك، ولكن سأخطئ قليلًا يا جدتي.

ضحك الجميع، فمسحت سمر على شعرها بحنان، ثم نظرت إلى تالا وقالت:

- أتعرفين يا تالا أنك تشبهينها، نفس البراءة، لكنك تجيدين إخفائها.

ابتسمت تالا وقالت بهدوء:

- ربما كنت طفلة يا خالتي، لكنني كبرت بسرعة.

نهضت سمر، وسحبت الصغيرة معها، معتذرة منهما بأنها ستغنّي مع الطفلة فقط، لكن قبل أن تذهب، همست في أذن تالا قائلة:

- لا بأس أن تعودي صغيرة... بقلبك فقط، فالحب في انتظارك لا تتأخري عنه.

شردت تالا في كلمات خالتها، التي تركتها عمدًا، لتُفسح المجال لقصة حب عادت لتظهر بقوة في حياة الجميع.

التفتت تالا، فوجدت نفسها في الصالة وحدها مع كريم.

خيّم الصمت على المكان، وكأن شيئاً مقدّساً على وشك أن يُقال، صبّ كريم كأس شاي آخر، ووضع ملعقة سكر، وبدأ يحرّكه بهدوء، ثم قال من دون أن ينظر إليها:

- أحب هذه الحياة... البساطة، الضحك، المشاعر الدافئة، أشعر أننا عائلة مثالية.

ابتسمت تالا وقالت:

- لم أعتد الجلوس في أمسيات دافئة كهذه، كل شيء في حياتي كان مؤقتًا، حتى الدفء، لطالما كنت أعتزل غرفتي، وخالتي كذلك، ولا نلتقي سوى على مواعيد الإفطار أو الغداء.

قال كريم بلطف:

- ربما حان الوقت يا تالا لتخرجي من عزلتك... التي كنتِ السبب الأكبر فيها.

نظرت إليه بتمعّن وسألت:

- هل تقول هذا لأنك تشعر بالذنب؟ أم لأننا التقينا أخيرًا بعد صمتٍ طويل؟

هزّ رأسه نافيًا ما قالته، ثم قال وهو ينظر في عينيها:

- لا، بل أقوله لأنني في كل مرة أراك فيها أشعر بأنني وصلتُ أخيرًا إلى قلبك.

سكتت تالا، وأطرقت برأسها نحو الأرض، ليس في ذهنها جواب حاضر لهذا الاعتراف.

أرادت أن تغيّر الحديث، لكنها قالت، من دون أن تشعر:

- لكنني خائفة... لستُ قوية كما أبدو.

قال كريم بصوتٍ دافئ:

- لا أريدك أن تكوني قوية، أريدك كما أنتِ... بخوفك، بارتباكك، بابتسامتك التي تظهر فجأةً كأنها نبتت من وجع.

نظرت إليه، وقد تلألأت عيناها بدمعةٍ يتيمة، ثم تمتمت:

- وهل يمكنك أن تحب فتاة لم تعد تعرف كيف تحب؟ أعتقد أنك تأخرتُ كثيرًا يا كريم...

ابتسم، ثم أجاب بهدوء، وكأنه يعدها:

- يمكنني أن أُعلّمها أن تُحب نفسها أولًا، ثم سأنتظرها حتى تتعلم أن تُحبني.

قالت تالا، وصوتها يتهدّج بشيء من الحنين:

- كأنك تُعيدني إلى عمرٍ تمنّيت أن أعيشه معك... كنتُ حينها أتمنى سماع كلمات الحب هذه منك.

أجابها كريم، وهو ينظر في عينيها بندمٍ:

- وأنا أيضًا... تمنّيتُ لو أنني قلتها ولم أرحل، لتغيّرت الحال عمّا صار.

ثم اقترب منها، وجلس إلى جوارها، ووضع يده فوق يدها، نظرت تالا إلى يده، ثم إليه... فقال بلطف:

- أنا لا أريد أن أهرب هذه المرّة.

سحبت يدها من يده بهدوء، وقالت:

- ولا أنا.

ثم هربت من أمامه قبل أن يقول شيئًا آخر، لم تحتمل نظرات الحب في عينيه، فنظرته الأخيرة كفيلة بتهديم كل وسائلها الدفاعية، ولن تقوى على الصمود أمام هذا الغرام.

❁ ❁ ❁

أغلقت باب غرفتها خلفها، وأسندت ظهرها إليه كمن يصدّ طوفانًا داخليًا.

أمسكت يدها التي احتضنت يده، وقبّلتها برفق، ثم اتجهت إلى الطاولة، وجلست على الكرسي.

التقطت دفترها كغريق يتشبّث بخشبة نجاة، وأمسكت القلم، كمن يُمسك سكينًا ليشطر به صدره، ويُخرج ما عَلِق به من وجع.

وبدأت تكتب:

إنه يشبه ذاك الهارب حين يبتسم، لكنّه يخالفه حين يقترب.

لقد جعلني أشعر بحبّه من دون أن يطلب منّي.

وعرفت أنني أحتاجه قبل أن يعود إلى قلبي مرة أخرى...

آه، صحيح...

هو لم يعُد.

لأنه لم يُغادر قلبي أبدًا.

أشعر أحيانًا أنه ذاك الظل الذي مرّ بي ولم يستقرّ.

كان حبًا مبلّلًا بالتردد...

أما هذا، فهو دفء لا أعرف هل أستحقّه.

لكنني أشتاق إليه قبل أن أغادره.

كريم، لا أعرف كيف أقولها، لكن قلبي بدأ يحفظك كسطرٍ لا يُنسى في رواية.

كدعاءٍ خافت لا يُقال بصوتٍ عالٍ، لكنه لا يُمحى من القلب.

وفجأة...

ارتطم صوتٌ خفيف بالنافذة.

لم تلتفت تالا، فقد اعتادت على اقتحامها المكان دون استئذان.

وما هي إلا لحظة، حتى حطّت جنين على طرف المكتب، وجناحاها يهتزان كفراشة خرجت من قلب عاصفة هوجاء.

قالت بصوتٍ قاسٍ كطعنة حادة:

- مجدّدًا؟ تكتبين له؟

رفعت تالا رأسها، ونظرت إلى الجنيّة الصغيرة التي تشبه ملامحها كثيرًا، ثم قالت بهدوء:

- أنا لا أكتب له، أنا أكتب عنّي... عما أشعر به.

قالت جنين بنبرة صارمة:

- كذب! أنت تكتبين له، وتكتبين عنه، لماذا تفرّطين بقلبك بهذه السهولة؟

صمتت تالا، وكأن كلماتها أصبحت طيوراً تخشى الطيران في حضرة الريـح.

اقتربت جنين من الدفتر، وقالت:

- مالك علّمك درسًا، لكنه لم يشفك، والآن تعيدين الخطأ مع رجل آخر، كأنك لا تعرفين كيف تحمين قلبك.

همست تالا كمن يدافع عن ذكرى دافئة:

- كريم ليس كمالك.
- بل كلهم مالك... كلهم يقتربون ثم يختفون.

سألتها جنين من دون تردد:

- مَن صنع مالكاً، يا تالا؟

أجابتها تالا بثقة متثاقلة:

- أنا...
- إن كان ما صنعتِه قد تمرّد عليك، ومزّق أحرفك، واستغل ضعفك، وكتب بدلًا منك ما يريد، فكيف ذاك الذي صُنع من لحم ودم؟

سكتت لحظة، ثم قالت بحزم:

- لن أدعك تكتبين عنه، سأملي عليك ما تكتبين:

"كريم... أنا لا أحتاجك، لن أسمح لك بالاقتراب.

الحب ليس عذرًا لتكسر قلبي مرة أخرى.

قلبي محاط بأسوار من تجارب لم تلتئم بعد، فلا تطرق الباب.

لقد اعتدتَ الصمت، وعلّمتني إياه...

فلماذا الآن، أشعر أنك كثير الكلام، قليل الصمت؟"

ثم نظرت بعينيها اللامعتين، المتقّدتَين بالغضب، وقالت:

- اكتبي هذا.

بقيت تالا ساكنة، والقلم في يدها يرتجف، ثم قالت بصوت مخنوق:

- لكنني لا أريد أن أكتب عن الكراهية، أنا لا أستطيع أن أكره.

فركت جنين جبينها، وقالت:

- المشكلة فيك إذن، قلبك ليّن أكثر من اللازم، وكل قلب ليّن يُكسر.

فتحت تالا صفحة جديدة، وقالت:

- إذن ليكن، إن كان الثمن أن أشعر لحظة أنني حية.

ثم عادت تكتب:

كريم، لا أعدك أنني سأصدّقك فورًا، أو أهرب إذا خفت.

لكن أعدك أنني سأحاول...

سأحاول أن أحبك كما أنا، لا كما يجب.

وإن رحلت...

سأكتب عنك.

لا لأبكيك.

بل لأشكرك.

لأنك جعلتني أصدّق أن الحب لا يأتي فقط ليؤلم، بل يمنحني الحياة أيضًا.

صمتت جنين لحظاتٍ، وهي تحدق بها كأنها طفلتها المتمردة، ثم قالت بجفاف:

- أنتِ خاسرة، ولن أحميك مرة أخرى.

رفرفت بجناحيها، وبدأت تتلاشى كما تفعل دائمًا، لكن هذه المرة لم تترك وراءها أثرًا من نور، بل ظلًا باردًا من الغضب.

رحلت...

وتركت تالا تنظر إلى دفترها المفتوح، وقلبها المفتوح أكثر، وقلمها الذي قرر أخيرًا أن يكتب كما تشعر، لا كما يرضي الآخرين.

كانت الغرفة الخلفية للمسرح هادئة، على عكس الضوضاء المشتعلة في الخارج.

وقفت سمر تحدّق في انعكاسها في المرآة المثبّتة على الجدار، تحاول أن ترى نفسها... المغنّية التي دفنتها السنون، لا الأمّ المضحية، ولا الزوجة المهجورة، ولا المرأة الخائفة.

ارتجفت أصابعها، رغم كل التدريبات، رغم كل الكلمات التي قِيلت لها:

"أنتِ قوية."

لكن القلب لا يخضع للمنطق، حين يقترب من الضوء.

دخلت تالا، وهي ترتدي فستانًا ورديًّا يشبه طيبتها، يصل إلى ركبتيها.

تأملت خالتها فستانها الذهبيّ الطويل، ثم ابتسمت وقالت:

- الليلة، لن تسمعي التصفيق فقط، بل ستشعرين به يخترق جدار قلبك.

ثم دخل كريم، أنيقًا كعادته، وفي عينيه بريقُ افتخار، تقدّم منها، قبّل باطن كفها، وقال:

- لا تفكّري في أي شيء، ولا تنظري إلى المقاعد... انظري إلى الضوء فقط، وغنّي وكأن العالم اختفى ولم يبقَ سوانا.

ابتسمت سمر، لكن دمعة تسللت إلى زاوية عينها وهمست:

- أخاف أن أرتعش أمامهم.

قال بلطف:

- ارتعشي... ثم غنّي بهدوء.

قبّل جبينها، ثم أمسك بكف تالا وذهبا معًا إلى المسرح.

جلسا في الصف الأول، ومعهما الصغيرة التي تنتظر جدتها بسعادةٍ وفرح.

كان صوت مقدّم الحفل يعلو، الجمهور يصفّق، والأضواء تشتعل.

خطت سمر أولى خطواتها على خشبة المسرح، وتنهّدت كأنها تصعد جبلًا شاهقًا، لا تدري هل سيأخذها إلى القمة، أم يُسقِطها من أعلاه.

ثم بدأت الغناء.

حملت الموسيقى صوتها إلى الجميع.

كل شيء سار كما ينبغي...

إلى أن وقعت عيناها عليه.

في الصف الثالث، كان رجل بشيبٍ خفيف، ينظر إليها باشتياقٍ دفين...

زوجها.

والد ابنها.

لم تتوقّع حضوره.

لم يُخبرها أحد أنه ما زال في دمشق.

كانت تظن أنها شُفيت من وجعه، لكن رؤيته الآن أعادت كل شيء إلى روحها المتألّمة.

كل ليلة غنّت فيها ولم يسمعها.

كل مرة أخفت فيها موهبتها لتكون "سيدة بيت ترضيه".

كل نغمة بلعتها.

كل دمعة كتمتها.

كل ذلك عاد...

مع نظرة.

ورغم ذلك، أكملت الغناء.

لكن الكلمات صارت له، واللحن صار له، كأنما خرجت من جسدها، وغنّت نيابةً عن المرأة التي لم تنَلْ فرصة الوداع.

كان يُصفّق بهدوء، لكن من دون ابتسامة، بنظرةِ حنينٍ كأنما يسمعها أوّل مرة... أو آخر مرّة.

وحين انتهت الأغنية الأخيرة علا التصفيق، راقبته بصمت.

رأته يقف.

يصفّق لها مرة... مرتين...

ثم استدار ومضى.

لم يتقدّم.

لم يُهنّئ.

لم يعتذر.

فقط... مضى.

وبقيت هي.

تمسّكت بالميكروفون، ونزلت دمعةٌ واحدة بصمت.

صعد كريم إلى المسرح، عانقها أمام الجميع، ثم همس في أذنها:

- أنتِ جعلتِني أفتخر، ليس لأنكِ أمي فقط، بل لأنكِ امرأة لا تُكسر.

في تلك الليلة، لم يكن الحفل انتصارًا للصوت فحسب، بل كان انتصارًا للمرأة التي غنّت لنفسها، وغفرت لنفسها... لأنها سكتت طويلًا.

❁ ❁ ❁

أرسل الليل ستاره، كمن يترك للعاشقين فسحة هادئة للحب والغرام.

جلست تالا في الشرفة على الكرسي الخشبي، تضُمّ كفَّها في حجرها، وعيناها تتأملان السماء، كأنها تفتش عن نفسها هناك.

جلس كريم إلى جوارها بصمت يشبه صمتها، لا يريد أن يُربِكَ اللحظة أو يستعجل الكلمات، كان يعرف أن اعتراف الحب لا يُنتزع، بل يُهدى.

قالت تالا بصوت خافت:

- كل ما فيّ كان مرتبكًا، حتى شعوري بك.

نظر إليها من دون أن يقاطعها، فهي وحدها من يجب أن تتكلم الآن، تابعت قائلة:

- ظننتُ أنني أحتاج وقتًا طويلًا لأعرف، لكن في كل مرة تغيب عني، أشعر أن هناك شيئًا ناقصًا في عالمي.

ترددت لحظة ثم أكملت:

- صوتك، وجودك، حتى سكوتك صار جزءًا من راحتي.

ابتسم كريم لها، وقال:

- خشيتُ أن أقترب أكثر فأربكك، لكن قلبي كان يقف عند عتبة روحك كل يوم، ينتظر منك إشارة، ابتسامة، أي شيء يسعد به قلبي.

نظرت إليه بعينين تحملان خجلًا وامتنانًا، ثم مدت يدها ببطء ووضعتها فوق يده، وابتسمت، همست قائلة:

- أنا لا أعدك بالكمال ولا برومانسية تشبه القصص، لكنني أعدك أن أكون حقيقية صادقة، وأبقى حين يكون البقاء قرارًا.

وضع يده الأخرى فوق يدها الناعمة، وقال:

- وهذا أكثر ما حلمت به... امرأة لا تأتي لتأخذ، بل لتكون.

حل السكون والهدوء على المكان، ثم كسر الصمت بسؤاله الخافت:

- تالا، هل تسمحين أن أطلبك من الحياة؟ هل تتزوجينني؟

رفّت عيناها، ارتعشت شفاهها قليلاً، لكنها لم تهرب من السؤال، بل قالت:

- لن أقول نعم بصوت عالٍ، لكن قلبي على ما أظن قالها.

ابتسم لها ورد قائلاً:

- وقلبي سمعها.

❁ ❁ ❁

دخلت تالا غرفتها، وجلست في هدوء الليل.

كانت الغرفة ساكنة، إلا من صوت قلمها وهو يتحرك فوق الورقة، برعشة قلب كرعشة كاهنٍ يتلو صلاة أخيرة.

نظرت إلى الصفحة البيضاء، تلك التي تنتظر بشغف ما ستقوله لها.

تنفّست... ثم بدأت تكتب:

كنت آخر احتمالاتي، فصرت أولى حقائقي.

لم تأتِ لتكسر شيئًا أو لترمّمه، بل لتجلس قربي.

قلتَ لي ذات مرة:

"أنا هنا، سأبقى، لأن هذا الحب من الصعب أن يُنسى."

أكتبك الآن ببطء، لأنني لا أريد أن أنهيك سريعًا.

أريد الاحتفاظ بك في جملٍ طويلة.

في فقراتٍ مرتّبة.

كأنك فصل لا أجرؤ على إنهائه.

لم تكن مجرد بطلٍ في روايتي.

بل أصبحت اسمي الثاني.

ودمي.

وزمني القادم.

هنا، ارتجف ضوء المصباح لحظةً، وارتفعت نسمة باردة من النافذة، ثم سُمِع طنين خفيف يعرفه قلبها جيدًا.

هبطت جنين على سطح الطاولة، وجناحاها يلمعان بوميضٍ غاضب.

قالت بنبرة حاسمة:

- هكذا قررتِ أن تُلقي بي على الهامش، وتسطّري النهاية وحدك؟

رفعت تالا عينيها، ونظرت إلى الجنيّة الصغيرة، ثم قالت بهدوء:

- بل قررت أن أكتب بقلمي.

صرخت جنين وهي تحلّق حولها بغضب:

- قلبك؟ قلبك هو من جلبني! أنا من صنعت فصولك، من همستُ في ليلك، أنا من أمليت عليكِ أول فكرة، وأول صرخة، أنا من تخيّلت معكِ أول رجل!

ردّت تالا بهدوء، كأنها تشفق عليها:

- صحيح... لكنّك لم تمنحي الحب، كنتِ تكتبين للخوف فقط.

اقتربت جنين أكثر، وصوتها صار مرعبًا، مشوبًا بالقهر:

- اكتبي الآن كما أكتبك! وإلا... ستمحين! سأُخرجك من عالم القلم، لن تعودي البطلة، بل مجرّد هامش في رواية لن يُكملها أحد!

هزّت تالا رأسها وقالت بصوت ناعم وثابت:

- أنتِ من ستمحين يا صغيرتي، انتهى دورك حين تعلمتُ كيف أكتب وحدي، حين أحببت دون أن أسألك، حين لم أعد أحتاجك لتقولي لي: "اكتبي عنه أو لا تكتبي."

أضاءت الغرفة لحظة، كأن شيئًا حقيقيًا انكسر في الهواء.

سكتت الجنية الصغيرة، نظرت إلى الدفتر بخيبة أمل، ثم إلى تالا بخذلان.

ارتفعت فجأة وطارت، ولم تقل وداعًا، اختفت، لا بخفة، بل بثقل من غبار وحبر قديم.

عادت تالا إلى الورقة، وتمتمت...

- وهكذا انتهت القصة كما يجب، بلا ظلٍ، بلا جناحين، بأن أكتب أنا لنفسي، عني وعن حبي.

ثم كتبت في الصفحة الأخيرة:

جلستُ أنا وهو، نتشارك الصمت لا الكلام.

وكأن العالم كله كتبناه سويًا.

من دون أن نكسر سطراً واحدًا.

وضعت نقطة، ثم ابتسمت.

ثم انقضى كل شيء صامتًا جامدًا، حتى أوراق دفترها لم تعد تحمل أثر حبر.

قلمها بين أصابعها صار جامدًا، كأنه لم يُخلق للكتابة، بل ليشهد النهاية.

ثم دخل مالك، لم ترَ لحظة دخوله، لكنه كان أمامها.

لم يكن ذلك الظل الذي عرفته، ولا ذاك الحبر الذي كتبته، كان النسخة المكتملة، الكاتب الحقيقي الذي خرج من بين السطور ليأخذ مكانه.

وقف أمامها، وعيناه لا تحملان كراهية، بل يقينًا ناطقًا كمن يعلن حكمًا لا رجعة فيه:

- انتهى وقتك يا تالا.

ضحكت، ظنّت أنها الأقوى:

- أنا من يقرر متى تنتهي القصة.

لكنّه اقترب ولم يتراجع:

- كنتِ مجرّد سؤال، سؤال عن الألم، عن الحب، عن الحقيقة، لكنني الجواب.

ارتجف جسدها، فقال:

- من أول حرف كتبتِه، كنتُ أنا الكاتب، وأنتِ التجربة، كنت أختبر مدى وعي الشخصية، وأنت الوحيدة التي صدّقتِ أنك الكاتبة.

ارتعش روحها، تذكّرت كل شيء: كريم، خالتها سمر، تالا الصغيرة، شهد، جنين...

مرّوا جميعًا كشريط بلا صوت، بلا نبض.

سألت بارتجاف:

- إذا كنت أنت الكاتب، فلماذا تركتني أعيش وهم الحب؟ لماذا تركتني أصدّق هذه الكذبة؟

قال وهو يرفع دفتي الرواية المغلقة:

- لأن الشخصية الحقيقية يجب أن تمر بكل شيء، لتعرف أنها لم تكن تَكتب... بل تُكتب.

صرخت بأعلى صوتها، وهي تشير إلى الدفتر:

- هنا بكيت اسمي، بكيت حياتي، بكيت حبي، وقلمي.

فتحت الدفتر لتُثبت له صحة كلامها، فوجدت صفحات الدفتر مليئة بخط مالك، والنهاية ما زالت تُكتب.

اقترب منها وهمس في أذنها:

- هل تعرفين الفرق بين الكاتب والشخصية؟
- الكاتب يخلق، يبدأ، ويبتكر، أما الشخصية فتعيش وهم حياة لا تخصّها، وترتدي رداءً قد لا يناسبها.

ثم فتح آخر صفحة، وكتب بيده:

«تمت.»

وبعدها نظر إليها وقال:

- وداعًا يا بطلة روايتي، يا من منحتني البداية، ومنحتُها النهاية.

ثم مضى حاملاً الدفتر معه.

لم تبكِ، ولم تنهَر، فما يُمحى لا يسقط، بل تحولت إلى صورة ظل امرأة على غلاف الرواية.

وهكذا انتهت تالا، كما تنتهي كل الشخصيات التي صدقت أنها تَكتب، ولم تكن سوى سطور في يد كاتب أكثر يقينًا.

الخاتمة

كانت قاعة الفندق تعجّ بالزوار، يتدافعون حول نسخ الرواية الجديدة، كلّ منهم يحرص على الحصول على نسخة موقعة من يد الكاتب.

في قلب المكان، جلس الكاتب مالك منصور واثقًا من نفسه، كأنه القلم الذي لا يرتبك أمامه الورق.

على الطاولات، تكدّست نسخ من كتابه الجديد، غلافه داكن اللون، يحمل صورة ضبابية لامرأة تسير في العتمة، لا اسم لها ولا وجه، مجرد ظل.

العنوان بارزًا على الغلاف:

«انتقام بين السطور»

رواية بقلم:

"مالك منصور."

يتناوب الزوار، يقفون في طابور، يبتسمون، يطلبون توقيعه، وهو يوقع باسمه بثبات، يده لا ترتعش، يملأ الصفحة دون أن يشارك أحدًا.

وفي زاوية بعيدة من القاعة، وُضع كرسي فارغ، لم يلتفت إليه أحد، ولم يجلس عليه أحد، كأنه مخصّص للغياب، لشخص لم يعد له مكان في الحكاية.

اقتربت منه إحدى الشابات تحمل نسختها، وقالت بابتسامة عفوية:

- أحببت بطلتك كثيرًا، تشبهني بطريقة ما.

قال بهدوء دون أن يرفع عينيه.

- كثيرون يشبهونها، قليلون فقط من عاشوها.

ثم وقع الكتاب وأعاده إليها بابتسامة غامضة، وخلفه وُضعت لوحة كبيرة تحمل صورة الغلاف، وفي أسفلها كُتب سطر بخط أنيق:

إلى التي كتبتني كي أكتبها، ثم نسيت أن الحبر لا ينسى.

وبين تصفيق الحاضرين ووميض الكاميرات، كان وحده يعلم أن الانتقام الحقيقي ليس بالسيف ولا بالكلمات، بل بأن تصبح الكاتب الوحيد، وتمحو اسمها من الصفحة الأولى.

وعند ذلك الكرسي الفارغ، فُتحت صفحة الإهداء من الكتاب بصمت.

إلى التي كانت تظن أنها البطلة، شكرًا لأنك منحتني بداية الرواية، ومنحتك النهاية.

إلى التي ظنّت نفسها الكاتبة، شكرًا لأنك صدقتِ الكذبة، فكتبتِ أجمل حكاية عنك.

مالك منصور

تمّت

٢٠٢٥/٧/١٢

من رحم الألم يولد الإبداع